المورُوثُ اللُّغويُّ وأَثَرُهُ
في بناء اللُّغة

قضايا لغوية

(٥)

رئيس مجلس الإدارة
محمد الأحمد
وزير الثقافة

المشرف العام والمدير المسؤول
د. ثائر زين الدين
المدير العام للهيئة العامّة السوريّة للكتاب

رئيس التحرير
د. محمَّد قاسم
مدير إحياء التراث العربي ونشره

الإشراف الطباعي
أنس الحسن

تصميم الغلاف
عبد العزيز محمد

د. محمَّد عطا موعد

المورُوثُ اللُّغويُّ وأَثَـرُهُ في بناء اللُّغة

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة – دمشق ٢٠١٧

قضايا لُغويَّة
العـدد (٥)
٢٠١٧م

الموروث اللغوي وأثره في بناء اللغة / محمد عطا موعد.- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٧م.- ٨٨ص؛ ٢٠سم.
(قضايا لغوية؛ العدد ٥)

١- ٤١٧ م و ع م ٢- العنوان ٣- موعد ٤- السلسلة

مكتبة الأسد

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد:

هذا بحث يحاول أن ينهض بالمستوى اللّغويّ للناشئة، ومعلوم أن المستوى اللّغويّ القويم والأداء السليم للّغة لا يأتي بين ليلة وضحاها، إذ لا بدّ له من أسس يقوم عليها، فاللغة لا تجري على الألسنة والأقلام على نحو صحيح وسليم إلاّ إن كان البناء اللغوي لمستعمل اللغة بناء صحيحاً متكاملاً، وعليه فلا بدّ من معرفة الأسس التي يقوم عليها البناء اللغوي حتى تجري اللغة في مجراها الطبيعي في حياتنا.

معلوم أن اللغة هي سلوك يقوم به المرء، وهذا السلوك له غاية، وقديماً لخّص هذا ابن جنّي بقوله: «أمّا حدّها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم»[1].

---

(١) انظر: الخصائص ١ / ٣٣.

وهذا الحدّ لا تتأتى منه الغاية إن كان ثمّة ضعف أو نقص أو خلل في البناء اللغوي؛ إذ كيف يطيق المرء أن يعبّر عن غرضه، وينقل ما يدور في خلده، وليس في جعبته بضاعة يفزع إليها، أو يكون حظّه منها نزراً، أو تكون الأركان التي تُبنى عليها اللغة من ضوابط وقواعد ومعايير غير واضحة المعالم فكأنها حطب.

إن ثمرة هذا الحدّ تتجلى في إتقان أداء اللغة عبر التكلّم والكتابة والقراءة وإدراك أسرارها وجمالها، فما السبيل لرفع المستوى اللّغويّ؛ ليطيق الناشئة إدراك أسرار اللغة وجمالها؟

هذا ما يحاول هذا البحث أن يخوض فيه، وأرجو أن يكون فيما سقته فيه النفع للعربيّة وأبنائها.

ولا يسعني أخيراً إلا أن أسدي خالص الشكر ولبّه إلى الهيئة العامة السوريّة للكتاب ممثلة بمديرها العام الدكتور ثائر زين الدّين، وإلى مديريّة إحياء التّراث العربيّ ممثلة بمديرها الأخ الفاضل الدكتور محمّد قاسم على تكليفي هذا الكتاب، ضمن السلسلة التي تصدرها (قضايا لغوية).

دمشق ٤/ ذو القعدة/ ١٤٣٨هـ الموافق ٢٨/ تموز/ ٢٠١٧م.

بات معلوماً أنّ لسماع اللغة في الصغر أثراً كبيراً في البناء اللغوي القويم، وقد أدرك القوم في الجاهلية ذلك، فكانوا يرسلون أبناءهم إلى البادية لسماع اللغة من ينبوعها الأصيل، وهكذا أطاق الناس في ذلك العصر أن يكتسبوا اللغة عن طريق السماع.

وهذا الأمر ليس ببعيد عنّا اليوم؛ فقد بات القاصي والداني يعلم أثر السماع في تحصيل اللغة، وعليه فإن هذا البحث سيخوض في السبل التي يمكن من خلالها رفع المستوى اللغوي عن طريق السماع خاصة، على أنني سأتحدث عن هذا في مستويين، الأول للناشئة عموماً، والثاني: لمن تميّز منهم.

أولاً: البناء اللغوي على مستوى السماع والحفظ للناشئة عامةً:

معروف أن الطفل لا يشرع بالتكلّم دون أن يحاكي ما سمعه؛ فمهارة التكلّم إذن تُبنى على ملكة السماع؛ فإن كان ما يسمعه الطفل صحيحاً حاكى ذلك، وعلى هذا يلزم أن نضع يدنا على الجرح، ونكون غايةً في الصراحة، وأن نواجه هذا السؤال دون لفّ أو مواربة: هل ما يسمعه أطفالنا يعينهم على استعمال اللغة استعمالاً سليماً؟

للإجابة عن هذا علينا أن ننظر فيما يسمعه أطفالنا في عصرنا، في البيت أولاً، ثم في رياض الأطفال ثانياً، ثم في المدرسة وما يليها من مراحل ثالثاً، ثم عبر وسائل الإعلام أخيراً.

إن الأطفال في بيئتنا العربية لا يكادون يسمعون الفصحى إلاّ لماماً، فالطفل منذ أن يأتي إلى هذه الحياة يسمع العامية من والديه، ومن محيطه، وهو سيحاكي ما يسمعه، وهذه العامية التي يسمعها لا تُعينه على البناء اللغوي السليم والصحيح؛ لأنها أصلاً لا تقوم على ضوابط، ومعلوم أن اللغة التي لا تقوم على ضوابط وقواعد ومعايير لغةٌ لا تصلح في مجال الفكر والعلم والحضارة، وقد تصلح هذه اللغة للتفاهم بين الناس، غير أنها لا ترقى بهم في مدارج العلم والفكر.

وقد يقول قائل: إن العامية تؤدي حاجة الناس في التفاهم بينهم، فاللغة في هذه الحالة حقّقت مرادها وغايتها، وهي في هذه الحالة تتفق تماماً مع ما قاله أبو الفتح عثمان بن جني من أن حدّها أصوات يعبر بها كلّ قوم عن أغراضهم، فما حاجتنا إذن لتعلّم الفصحى وقد تحققت الغاية من اللغة في التواصل بين الناس؟.

لا شك أن العامية تحقق الغرض في التواصل بين الناس، ولكن هذا التواصل ضيّق الحدود والأفق؛ ولو اكتفى كل قوم بالعامية التي درجوا عليها لضاق أفق اللغة، وبقي انتشارها محدوداً في بيئتها، واللغة عندما تكون كذلك تبقى في ضيّق حدود الفكر والعلم والاستعمال، ولا تخرج عن بيئتها، فلو أن أهل دمشق مثلاً لم يتعلموا إلا اللهجة التي تخصهم وحدهم؛ لبقيت هذه اللهجة في المجتمع الدمشقي وحده، ولضعف أن يتواصلوا مع سواهم ممن يقطن في ريف دمشق، وكلما بعدت المسافة عسر التواصل، هذا على صعيد القطر الواحد، فما بالنا إن وسّعنا دائرة التواصل، لتشمل ما جاور الشام من بلاد، فمن الصعب جدا مثلاً أن يتواصل الجزائريون أو المغاربة مع أهل الشام لبون شاسع في عاميات تلك الأقطار.

وقد يقول قائل: إذن الحل يسير؛ إذ يمكن والحالة هذه أن نتفق على عامية واحدة ونجعلها تفشو بين العرب.

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا: أي عامية تلك هي التي ستكون موضع قبول من جميع العرب: المصرية أم الشامية أم المغربية أم لهجة الخليج؟ ثم إن هذه العاميات متباينة في القطر الواحد، فكم من عامية نراها في سورية، بل في المنطقة الواحدة، فبين مدينة دمشق وريفها عاميات كثيرة، ولا يمكن على هذا المستوى فقط أن نوحّد هذه العاميات، فكيف سيؤول الأمر على مستوى القطر الواحد، أو البلاد العربيّة كلّها؟.

إن الاتفاق على عامية واحدة لتفشو بين العرب لهو خطّ في الهواء، وبناء فوق رمل متحرّك.

وهبْ أنه أمكن إيجاد عامية واحدة تكون موضع قبول من العرب كلّهم، فكيف يمكن في هذه الحالة أن يتعلّم الناس في الأقطار العربيّة هذه العامية، وما السبيل لنشرها.

معلوم أنه من الأمور البديهية التي تعين على تعلّم اللغة هو ضبط قواعدها ومعاييرها، فهل يمكن والحالة هذه أن نضع لهذه العامية

التي أجمع العرب على قبولها لغة مشتركة بين الجميع قواعد وضوابط ومعايير، ثم على أي أسس ستقوم تلك القواعد والضوابط؟

إن العاميات الفاشية في البلاد العربيّة ليس لها ضوابط ومعايير، والناس يدرجون على تعلّمها عن الطريق المحاكاة، فالمحاكاة هي السبيل الوحيدة لتعلّم تلك العاميات، فعلينا إذن أن ندرّب مئات آلاف من المتدربين ونبثّهم بين الناس على امتداد العالم العربي، فهل هذا ممكن؟ وهبْ أن هذا الأمر تحقق، فهل من السهولة بمكان أن يستغني الناس في القرى النائية عن عاميتهم التي درجوا عليها إلى عامية جديدة؟.

إذن إن اصطفاء عامية واحدة من بين مئات العاميات التي تشيع في عالمنا العربي لهو أمر رهق عسير.

وقد يقول قائل: إذن يمكن أن نقارب بين العاميات، وأن يتفق العرب على عامية مشتركة، يسهل من خلالها التواصل فيما بينهم.

إن المقاربة بين العاميات تعني اختراع لغة جديدة، واختراع لغة جديدة يعوزه وقت كبير وجهد متواصل، إذ ليس من اليسير أن يتواضع القوم على مصطلحات جديدة، ومسمّيات جديدة، توضع ضمن ضوابط وقواعد، ويكون لها أصول،

تكون محلّ قبول وتوافق، وهو ليس بالأمر الهيّن، ثم هبْ أنْ أمكن هذا، فكم من الكوادر التي يعوزها التدريب والرياضة بعد الرياضة حتى تفشو تلك اللغة بين الناس؟ وهو أمر يعوزه الجهد والمال الكثير، وثمرة نجاحه ضئيلة؛ لأن قبول لغة جديدة لدى شرائح المجتمع المتفاوتة في الثقافة والمعرفة والعادات والتقاليد لهو أمر جدّ معقّد.

فأيّ الطرق أسلم وأيسر إذن لنسلكها من أجل بناء لغوي سليم صحيح: أهو ترسيخ عشرات العاميات في القطر الواحد، ومئات العاميات في الأقطار الأخرى، أم الاتفاق على عامية واحدة تكون موضع قبول من العرب كلّهم، ثم نشرها بين الناس، أم نقارب بين العاميات؛ لنحدث من جميعها لغة واحدة وهو يعني طبعاً اختراع عامية جديدة تكون محلّ قبول عند الجميع.

إنّ أيّاً من هذه الطرق لا يمكن تطبيقه على الصعيد العملي لما له من عسر وصعوبة في التطبيق، وأقل شيء يمكن أن يواجه هنا هو استحالة تعليم أبناء العرب عامية واحدة لا ضوابط لها ولا قواعد.

وقد يقول قائل فلمَ لا نجرّب، فالتجربة وحدها هي التي تقطع بإمكان تطبيق هذا أو استحالته، ولمَ دائما نحن - العربَ - لا نحبّ البحث والدرس والتجربة؟ فالعلم يقوم على هذه الأسس، وكل شيء تعوزه التجربة والبحث والدرس مستبعدان من حياتنا، ونحن نحكم مسبقاً على إخفاقه، وعلى استحالة تطبيقه، فماذا نخسر إن جرّبنا هذا؟

إن هذا الكلام هو الآخر لا ينهض من الناحية العلمية؛ لأن من أسس العلم والبحث أن يضع الباحث فرضياته، ويعرف حدود بحثه، فإن وجد أن ثمّة خللاً في هذه الفرضيات فإنه يكون من الحماقة بمكان أن يبحث ويجرّب، وفرضية البحث تعطيه الجواب الواضح والصحيح والصريح، وهو أن لا مجال للتجربة، والنتيجة هي إخفاق البحث، وإن صمّ الأذن في هذه الحالة والمعاندة والمكابرة في التجريب لهي المكابرة بعينها، ولهي إهدار للوقت والجهد والمال، ولا أظن عاقلاً في حياتنا المعاصرة يفعل هذا.

ومع ذلك يمكن أن نطبّق بعض الأسس والمعايير العلمية على هذه العاميات التي تغزو أمصار المشرق والمغرب؛ لنرى

هل تطيق هذه العاميات - أو بعضها- أن تؤلف موروثاً لغوياً يُعوّل عليه في بناء اللغة عند الأجيال؟.

إن نشر لغة صحيحة وسليمة يقتضي أن يكون لها خصائص مشتركة بين العرب، فإن انطبقت هذه الخصائص على اللغة التي تناسب الناس في أمصار العرب فيجب في هذه الحالة أن يكون هناك عمل دؤوب، وأن يبذل الجميع كل جهد في سبيل نشر هذه اللغة، فما هذه الخصائص التي يجب أن تتوافر في هذه اللغة؟.

إن من أظهر خصائص هذه اللغة أن تكون في العقل الجمعي للأمة، وأن تصل بين الماضي والحاضر والمستقبل، وأن يستطيع أي عربي في عصرنا أن يفهمها إن سمعها، أي أن تكون لغة تصلح للتواصل بين مشرق الوطن العربي ومغربه، وشماله وجنوبه، وأن يكون لها ضوابط ومعايير وأسس هي موضع اتفاق بين الناس قديماً وحديثاً، وأن تكون مفرداتها مجموعة في المعجمات والمصادر، وأن تكون غنيّة بالمفردات، بحيث تكون هناك سعة أمام مستعمل اللغة في التعبير عمّا يجول في خاطره، وأن تكون أساليبها وطرائقها معروفة نصّ عليها أهل اللغة، وأن تكون لغة الكتابة والتدوين

والعلم والفكر والحضارة، وأن تصلح لكل عصر إلى غير ذلك من خصائص. فهل هذه الخصائص تنطبق على العاميات الفاشية في الأمصار العربيّة؟؟

إنّ المتأمل للعاميات يرى أن الخصائص السابقة لا يمكن أن تنطبق عليها أو على بعضها، ذلك أنها ليست في العقل الجمعي للأمة، فهل العامية الشامية مثلاً تراها عند المغربي أو المصري أو الخليجي أو العراقي؟ وهل العامية المصرية - ولعلّها أكثر العاميات انتشاراً في أمصار العرب - تراها في العقل الجمعي للأمة؟ فهل يطيق الشامي أو العراقي أو المغربي أو الخليجي أن يستعمل العامية المصرية كما يستعملها الناس في مصر؟

ثم هل ثمّة ضوابط أو معايير أو قواعد يمكن أن تجعل العامية المصرية في العقل الجمعي لأمة العرب؟

الجواب عن ذلك أن عامية المصريين أو أهل الشام أو غيرها هي ليست في العقل الجمعي للعرب، وهي لا يمكن أن تكون في هذا العقل الجمعي مهما بُذلت الجهود والأموال؛ لأن هذا يصطدم بالضوابط والأسس والمعايير التي على أمّة العرب أن

تعرفها حتى تستعملها على النحو الذي عليه أخوتنا في مصر، فهذه العاميات جميعاً لا تقوم على أي أسس أو ضوابط.

على حين أن الفصحى تراها في العقل الجمعي للأمة، فإنْ جَمعَ سبيل بين شامي ومغربي ترى أنّ ثمة خصائص مشتركة في العقل الجمعي بينهما؛ فإذا بهما يتواصلان باللغة العربية على نحو يوحي بأن الصداقة تجمع بينهما من سنوات، وإن من يرى مدى التآلف والتفاهم والتواصل والانسجام بينهما لا يصدّق أن هذا اللقاء هو اللقاء الأول بينهما.

فالعربية إذن موجودة في العقل الجمعي للأمة، وهي لغة تصلح للتواصل بيننا، وهي مِنْ ثَمَّ يصلح أن يكون موروثها اللغوي أساساً في البناء اللغوي عند أبناء أمة العرب.

ثم هل يمكن اصطفاء عامية من هذه العاميات، بحيث يجمعها الماضي والحاضر والمستقبل؟.

إنّ أدنى نظرة في ذلك يرى أن هذه العاميات جميعاً لا يجمعها ماض واحد وحاضر واحد ومستقبل واحد، فالتراث الشعبي الذي يمكن أن تكون تلك العاميات مصدره هو تراث مختلف

بين مصر وآخر، وحاضر هذه اللغات بيننا يكشف مدى التفاوت بينها في المفردات وطرائق التعبير، وربما يجمع حاضرها المشاهد لنا هو شيء واحد، وهو أن هذه العاميات ليس لها أسس أو قواعد أو معايير أو ضوابط، وعليه فإن البون سيكون شاسعاً بين ماضيها وحاضرها ومستقبلها، وإن أضيف إلى هذا التغيّر الكبير الذي تشهده هذه العاميات في مفرداتها، وطريق تعبيرها وأصواتها، وهو تغيير لا يمكن أن تحدّه ضوابط، إذ ثمّة تغيّر كبير في هذه العاميات، كما في دول الخليج خاصة حيث كان للخدم والعمالة الوافدة أثر لا ينكره عاقل في دخول مفردات ومرددات أعجمية انتشرت بين الناس انتشار النار في الهشيم، وهذا كلّه يؤكد أن مستقبل هذه العاميات مجهول تماماً.

ثم هل يمكن اختيار عامية من هذه العاميات لتكون صالحة للتواصل بين أبناء يعرب؟. هل يطيق الشامي أن يفهم لكنة المغربي أو الجزائري؛ إنّ المرء ليهون عليه أن يسمع الفرنسية وهو يعاني الضعف فيها، ولا يهون عليه أن يسمع هذه الأخلاط في المغربية أو الجزائرية التي لا تستسيغها الأذن، ذلك

أن الفرنسية لها إيقاع معيّن يلحظه المستمع، وهو إيقاع يمكن أن يكون له وقع على الأذن عذب.

وعليه فهذه العاميات لا تصلح أن تشيع في أمّة العرب؛ لأنه لا رابط يجمع بين ماضيها وحاضرها ومستقبلها، فهي عاميات لا تصلح للتواصل بين أبناء العرب.

ثم هل يمكن التمحيص في هذه العاميات، بحيث نختار واحدة منها يكون لها ضوابط وأسس ومعايير وقواعد، ويمكن حينئذٍ أن نفشيها بين العرب وفق تلك الضوابط والمعايير، فاللغة التي تقوم على ضوابط وقواعد يكون من السهولة نشرها بين الناس.

إنّ الناظر في هذه العاميات يجد أنها لا تقوم على أي قواعد، وعليه فإنها لا تصلح أن تكون لغة التواصل بين العرب.

ثم إنّ اللغة موضع التواصل يجب أن تكون مفرداتها مجموعة في المعجمات والمصادر، وأن تكون غنيّة بالمفردات، بحيث تكون هناك سعة أمام مستعمل اللغة في التعبير عمّا في ذهنه.

فهل ثمّة معجم تتبّع مفردات أيّ عاميّة من عاميات العرب، فعرض تلك المفردات على النحو الذي نراه في معجمات الفصحى؟

في حدود علمي لم أقف على معجم عامي يفزع الناس إليه كما يفزعون إلى معجم لسان العرب أو القاموس المحيط أو تاج العروس أو المعجم الوسيط، أو المعجم المدرسي، أو حتى مختار الصحاح متى أرادوا أن يعرفوا معنى كلمة أو مصدر فعل أو جمعا أو تثنية إلى غير ذلك مما يفزع الناس إِليه عادة؛ فيجدون ضالتهم في هذا المعجم أو ذاك.

وعليه فليس من مرجعية معجمية للعاميات، ولغة دون مرجعية لا تصلح أن تكون لغة للتواصل بين أمصار العرب.

ثم هل هذه العاميات أو بعضها غنيّة بالمفردات، بحيث تكون هناك سعة أمام مستعمل اللغة في التعبير؟

إنّ هذه العاميات ليس لها ذلك الغنى والتنوع في مفرداتها، لأنها لا تملك ذلك الكم الهائل من الكلمات الذي نراه في العربيّة الفصحى، فالعربيّة الفصحى تملك ما يربو على اثني عشر مليوناً وثلاث مئة ألف كلمة[1]، فهل ترى هذا الحشد من الكلمات في العاميات؟

---

(١) انظر: (إنفوجرافيك) مقارنة بين عدد كلمات اللغات في العالم، وفيه أن عدد كلمات الإنكليزية ست مئة ألف كلمة، والفرنسية مئة وخمسون ألف كلمة، والروسية مئة وثلاثون ألف كلمة.

وعليه فهي لا يمكن أن تستوعب المعاني التي يقصدها مستعملها؛ لسبب يسير وهو أنها لا تصدر عن موروث يصل ماضيها بحاضرها بمستقبلها، على حين أن اللغة الفصحى موصولة بين الماضي والحاضر والمستقبل، فهي لغة ليست منقطعة، فهذا طرفة بن العبد في معلقته يسوق ما يربو على ثلاثين بيتاً في وصف ناقته، وهي أبيات يطيق العربيّ أن يفهم معناها بكل يسر وسهولة؛ فبمقدوره أن يعود إلى أي شرح من شروح المعلّقات، وينظر فيه ليقف على وصف طرفة لناقته، وكذا يطيق متعلّم العربيّة أن ينظر في معلقة امرئ القيس فيعرف صفة طلله، وأن ينظر في وصف الليل عنده، أو في وصف الفرس، أو فيما ساقه من غزل أو سوى ذلك، ويطيق أيضاً أن ينظر في شعر الحكمة عند زهير، وفي الشعر الذي ذمّ به الحرب، فيتذوقه وكأنّ زهيراً قد كتبه لأبناء عصرنا، ويطيق أيضاً أن ينظر في شعر حسان، أو بردة كعب، أو شعر الأخطل أو جرير أو الفزردق أو أبي تمام أو البحتري أوالمتنبي أو أبي العتاهية أو أبي العلاء أو البوصيري، أو ابن نباتة... فيعرف مقاصد شعرهم وأغرضه كما يطيق في الوقت نفسه أن يقف على شعر شوقي أو البارودي أو

حافظ إبراهيم، أو إبراهيم طوقان أو السيّاب أو نازك الملائكة أو نزار أو محمود درويش أو سميح القاسم فيعرف مقاصد شعرهم وأغراضه، وما كان لمتعلّم العربيّة هذا لولا التواصل بين ماضي اللغة وحاضرها ومستقبلها، فهذه اللغة التي وصف بها طرفة ناقته في معلقته في الجاهلية هي اللغة نفسها التي وصف بها شوقي الطائرة، وقس على ذلك، على أنك قد لا تجد هذا التواصل في لغات أخرى، فإنكليزي اليوم لا يطيق قراءة شعر شكسبير كما يطيق عربي اليوم قراءة شعر عنترة؛ لبعد البون بين إنكليزية اليوم وإنكليزية شكسبير، وهذا البون لا تراه عند متعلّم العربية في عصرنا لاتصال العربية عبر العصور. والأسباب التي أبقت على هذه الصلة كثيرة؛ لعلّ من أظهرها تواتر هذه اللغة في نقلها من جيل إلى آخر، وإنّ حاجة الناس لتعلّم القرآن الكريم وتفسيره والوقوف على أحكامه وسّع دائرة العناية بهذه اللغة، فنتج عن ذلك ظهور علوم القرآن الكريم والتفسير، وإن تفسير القرآن جعل المفسّر يغوص في أعماق الشّعر الجاهلي خاصة؛ كي يستدلّ على تفسير لفظ أو طريقة في تعبير القرآن بما عرفته العرب من معان للألفاظ، ومن طرائق في التعبير، فاقتضى هذا جمع شعر

الشعراء، والتأمل فيه، والتدقيق فيه، لتمييز الصحيح مِن المنحول؛ فنشأت عن ذلك حركة في الفكر والأدب واللغة والتأليف والتدوين والتعليم استمرت عبر القرون، فكان هذا التراث الضخم في مجالات كثيرة متنوعة، وهذه الحركة لمّا تزل متواصلة مستمرة، يعين عليها لغة مطواع تتسع لكل علم ولكل الأعصار، فحقّ لها أن تكون لغة العقل الجمعي لهذه الأمة.

ولمّا كان الأمر على ما سقت تبيّن أَنَّ موروث العامية لا يصلح أن يبني لغة صحيحة سليمة؛ وعليه فإن الطريق الصحيح هو الاعتماد على العربيّة الفصحى في ذلك، وعلى هذا فما السبيل القويم لبناء اللغة عند أبنائها على أسس علمية صحيحة؟

سلف أن من أهم الأسباب التي حافظت على هذه اللغة تواتر موروثها، فهو موروث يصل الماضي والحاضر والمستقبل، وعليه فإن بناء لغة أبناء العربيّة اليوم يجب أن ينطلق من هذا الموروث؛ وإنّ إهماله يعني أن كل تطوير أو تحديث في طرائق تعلّم العربية لن يؤتي ثمرته، ولذا فإني سأسوق في هذا المجال رؤية معيّنة كي يقوم البناء اللغوي عند أبنائها على أسس واضحة تعينهم على إتقان لغتهم.

معلوم أن المرء يتكلّم وَفْقَ ما يسمع، فإن كان سماعه صحيحاً أثّر ذلك في لغته، فسمت وارتقت، وإن كان سماعه فاسداً فسدت لغته.

وإن نظرة فيما يسمعه أبناء العرب اليوم لتقطع بأن ما يسمعونه في الأعمّ الأغلب لا يمكن أن يقيم لغة صحيحة سليمة لديهم، فجلّ سماعهم يقوم على العاميّة، وقد سلف أن العاميّة لا تصلح أن تكون لغة المعرفة والفكر والعلم، وهذا يعني أن مزيداً من سماع العامية يعني مزيداً من الضعف في المعرفة والفكر والعلم، ولا أريد هنا أن أتحدّث عن صلة اللغة بالفكر -وإن كنت سألمح إليه بعدُ- فقد بات هذا الأمر بديهياً، وبناء على هذا فإنه يجب أن نُولي سماع الفصيح جانباً كبيراً من حياة أبنائنا، وهذا السماع هو الذي تقوم عليه اللغة، ومعلوم أن البيئة المثلى لهذا السماع هي السنوات الأولى من حياة الطفل، فعلينا أن نعمّق سماع الفصحى في هذه المرحلة، وهذا يكون بخطوات فعلية تقوم بها الأسرة؛ لأن السنوات الأولى من حياة الطفل تكون مسؤولية الأم والأب بالدرجة الأولى، فعليهما ألاّ يدّخرا أيّ جهد في سبيل إسماع الفصحى لأبنائهم في تلك المرحلة المبكرة من حياتهم.

والمعضلة الرئيسية في رأيي تكمن في أن هذا السماع مستبعد من حياة الوالدين تماماً؛ وذلك لأنهما يجهلان مدى أثره في تلقي اللغة الصحيح في شخصية الطفل في قابل الأيام، فلو كان هناك الوعي الكافي لأهمية اللغة في حياة الطفل، وأثرها الكبير في بناء شخصيته السليمة لألفينا أن الوالدين يبحثان ويسألان ويستقصيان عن السبل الصحيحة والقويمة في بناء السماع الصحيح لدى الطفل، تماماً مثلما يوليانه العناية والرعاية الصحية والنفسية والاجتماعية والجسدية، بحيث تصبح العناية اللغويّة لا تقل شأناً عن ذلك؛ ولكن ضعف الوعي في هذا الجانب يجعل الحياة اللغويّة للطفل في آخر حسابات الأسرة، ولهذا علينا أن نمكّن هذا الجانب لدى الأب والأم، وتمكينه يكون بالتوعية والتبصير.

ولعل الإعلام يكون له الدور الأول في هذا المضمار، فالإعلام عندما يكون من همومه الأولى بناء اللغة الصحيحة عند الأجيال تراه كلّ يوم يخصص جانباً منه في وسائله الأكثر انتشاراً لتبصير الناس بمدى قيمة اللغة في حياتهم، ويعطي الفكرة تلو الأخرى في بناء سماع صحيح في الأسرة، وذلك عن طريق خطط مدروسة يشرف عليها كبار المربّين والمفكرين والإعلاميين واللغويين.

وقد يقول قائل: وهل عند الأب والأم الوقت الكافي لذلك؟ إنّ هموم الحياة اليومية وتعقيدها الشديد لا يُدخل هذا في حسابات الأسرة، وقد يكون على رأسها تدبّر لقمة العيش التي تجعل البناء اللغوي آخر ما تفكر به الأسرة، فالأسرة ليس لديها الوقت لهذا الترف الفكري، إذ كيف يمكن لها أن تُقدم على هذا الترف الفكري وهي تفكر كل يوم ألف مرة في بنطال أو كرّاس أو ربما رغيف خبز، أو غير ذلك من الحاجات الرئيسية التي يحتاج إليها الأبناء؟ ما هذا الكلام الذي تسوق؟ إنّ من يقترح مثل هذه الاقتراحات في مجال البناء اللغوي لهو امرؤ بعيد كل البعد عن واقعه، فأنت منفصل تمام الانفصال عن حياة الناس. أنت تفكر في هذا لأن تخصصك هو في مجال اللغة، وتريد من الناس أن يكونوا أهل لغة مثلك، وربما من يقرأ مثل هذا الكلام يعقّب بقوله: «كلام فارغ، كلام ببلاش.. إلخ»، وربما يصبح مثل هذا الكلام في بناء اللغة موضع تندر لدى الناس.

لا ريب أن الناس يعانون ما يعانون في حياتهم، وهذا لا ينكره عاقل، وطبيعي أن يقدّم الناس حاجاتهم الأساسية على ما يسمّى التّرف الفكري؛ ولو علم الناس أن ما يسمّى

الترف الفكري- في هذا الجانب- هو أساسي في حياتهم؛ لقدّموا التحصيل اللغوي ربما على طعامهم وشرابهم، غير أنهم يجهلون مدى أثر اللغة في الحياة؛ إذ إن اللغة لها كبير الأثر في حياتنا، وإذا كان الأمر كذلك فإني سأتحدث عن هذا الدور في حياتنا؛ لعلّه يكون محفّزاً لمن يقرأ هذه الكليمات، فلعلّه يبدّل من نظرته إلى اللغة.

إن للّغة دوراً كبيراً في حياتنا؛ ذلك أن اللغة تمدّ المرء بالثقافة والفكر والوعي، والتعلّق بها يمدّ المرء بالتحصيل المعرفي والثقافي عبر القراءة المستمرة طيلة الحياة، وهي تفتح له مجالات متراحبة في حياته، وشتان بين امرئ تجري القراءة والمعرفة والثقافة في دمه، وبين امرئ حظّه نزر من القراءة والمعرفة والثقافة يسير، فالأول يحكّم ثقافته ومعرفته في مناحي حياته كلّها، فالقراءة والمعرفة تنير حياته دائماً، وتكون عوناً له على كلّ ما يعرض له فيها، فهي نور يبعده عن مهاوي الجهل، وهل ثمّة عدوّ أعتى من الجهل؟ ويكفي أنه يجري على ألسنة الناس اليوم: أنّ الجاهل يفعل بنفسه ما لا يفعله عدوّ، ولو كان ثمّة ثقافة دائمة مستمرة تجري في الناس مجرى الدم لما جرى في عالمنا العربي ما جرى، ولعلم الصغير قبل

الكبير أن ألد أعدائنا ممن روّجوا بين الناس شعارات وأفكاراً ظاهرها يدعو لانفتاح العيون نحو المجتمعات المتحضرة ومحاكاتها؛ كي ترقى في سلّم الحضارة، وباطنها يدعو إلى الثبور والهلاك والخراب والفوضى الخلاقة التي بشَّر بها أعداؤنا، والناس تغط في عميق النوم، ولو كان عند الناس بعض حظٍّ من معرفة وقراءة لحصّن كلّ إنسان نفسه بها، ولعلم أنّ أمثال هذه الدعاوي من قبل عدوّنا لا يُراد منها أي خير، ونحن لمّا نزل نهوي ونهوي في أودية الجهل السحيقة التي لن ينقذنا منها إلاّ نور المعرفة والثقافة، والأداة الأساسية لذلك إنما هي اللغة، إذ كيف يمكن لإنسان يريد الثقافة والمعرفة والأداة الأولى لا يملكها؟.

وعليه فإن تحصيل اللغة القويم هو النقلة التي تنقل الأمم من طور إلى آخر، وهذا التحصيل لا يأتي بالتمني والأحلام، بل يأتي بالكد وبذل الجهد بعد الجهد، لذلك تبذل الأمم اليوم الجهد والمال في سبيل هذه الغاية، ومن ينظر ما تفعله (إنكلترا) مثلاً في سبيل نشر لغتها بين أبنائها، وبين شعوب الأرض يعرف مدى أثر اللغة في حياة الشعوب. وأوّل جهد يجب أن يُبذل في سبيل هذا هو أن يَسمع النشء اللغة الفصحى.

وقد يقول قائل: إنّ هذا لهو ضربٌ من التيه، فهل تريد أن تسود الفصحى في البيت، بحيث يتكلمها الأب والأم على نحو طلق؟

أقول: أنا لا أطلب هذا ولا أسعى إليه؛ لأن هذا الأمر غير ممكن، فكثير من الأسر ليس لها حظّ في العربية، وفاقد الشيء لا يعطيه، ولكن هناك خطوات عملية تُراعي واقع الناس ومستواهم اللغوي يمكن أن نقوّي من خلالها سماع الناشئة، وبمقدور أي أسرة أن تقوم بها، والأمر لا يحتاج إلا إلى الإرادة والمتابعة اليومية، ولا يُعوزه أن يكون في كلّ منزل أستاذ في النحو واللغة والتصريف والأدب..، فقط على كلّ أمّ أنْ تهبَ من وقتها كلّ يوم ساعة واحدة لابنها تقسمها شطرين، أو أكثر على مدار اليوم، تُسمع فيها ولدها تسجيلاً لكلام فصيح، ويمكن أن يكون هذا الكلام قصة مسجلة أو شعراً أو قرآناً أو أي كلام فصيح يستهوي الأطفال، وهو أمر موفور للجميع على شبكة المعلومات أو على الأقراص المضغوطة، وعليها أن تكرر ذلك على مسامع ولدها مرّة بعد أخرى حتى يحفظ ذلك؛ فإن حفظَ ما سمعه ولج هذا الفصيح مخزونه اللغوي، وصار جزءاً منه، سيفيد منه في قابل الأيام، وإنّ متابعة هذا العمل بشكل يومي ليعطي هذا الطفل

حجماً كبيراً من سماع اللغة وحفظها، ويمنحه المعرفة والثقافة، تصوّروا لو أن الطفل حفظ في كل أسبوع ثلاثة نصوص فصيحة نتيجة تكرارها على مسامعه، فكم في الشهر سيحفظ، وكم في السنة سيكون زاده منها، وكم من زاد فصيح سيكون في جعبته عبر السنوات السّت الأولى من حياته؟

وعلينا ألاّ نستهين بهذا الجانب، جانب سماع اللغة عن طريق الأقراص المضغوطة، أو ما توافر على شبكة المعلومات من نصوص فصيحة شعرية ونثرية وهي كثيرة، فهذا جانب له حظّ كبير في غرس سماع صحيح، وأذكر في هذا المجال أن الدكتور زهير سمهوري وكان أستاذاً معروفاً في قسم اللغة الإنكليزية بجامعة دمشق، قد سأل أحد طلابه الأفذاذ –وهو من معارفي - كم لبثت في (إنكلترا) حتى استطعت إتقان لُكْنة الإنكليزي؟ فجاءه الجواب مذهلاً: دكتور أنا لم أخرج من الحيّ الشعبي الذي أقيم فيه بدمشق إلا إلى كليّة الآداب بالمزة!! فلم يصدقه، إلى أن قال له: أنا آتي بالأشرطة (كاسيت في ذلك الزمن) لتعليم اللغة الإنكليزية فكنت أسمعها وأكرر السماع، ثم أحاكي ما أسمع، وأكرر هذا المرة بعد المرة حتى أطقتُ إتقان لكنة الإنكليزي.

وعليه يمكن القول: إنّ النشأة اللغويّة القويمة والسليمة والصحيحة تعني أن هذا المرء في مخزونه اللغوي مئات آلاف من المفردات والتراكيب التي تكون مطواعاً له في استعمال اللغة الاستعمال الصحيح، فهي تنجده في التعبير عن أي معنى يريده.

وأمام ما أسوق يأتي التذرع بالوقت، فمن يُصغي إلى هذا الكلام يقول: لا وقت لهذا الذي تقترح.

وهذا لا ينهض في رأيي لأن من يرى واقع كثير من الأمهات والآباء في إهدار الوقت على مواقع التواصل الاجتماعي، ومتابعة المسلسل بعد الآخر على القنوات الفضائية فيما لا يفيد غالباً هو حجة ماثلة أمام كل ذي لبّ؛ وعليه فالأجدر والأحقّ أن يُوجّه هذا الوقت المهدور عبثاً نحو بناء شخصية الأبناء ومتابعتهم في البناء الروحي والمعرفي والثقافي قبل البناء الجسدي، فحاجات الجسد يمكن للمرء أن يصبر عليها، وأن يتخفف منها؛ بل إنّ التخفف منها لا يؤذي كثيراً، غير أن الأذى الكبير والمصاب الجلل هو في ترك الحبل على الغارب للأبناء يفعلون ما يحلو لهم؛ وذلك أنْ ليس من رقيب يتابع بناء شخصيتهم وكيانهم، وليس ثمّة من ينظر

في تلك الثقافة الهشة والمزرية التي تتحصّل لهم من معاشرة رفاق السوء سواء أكانوا في واقعهم في المدرسة والشارع، أم في عالم افتراضي فرضته عليهم وسائل التواصل الاجتماعي وعالم (النت)، وما أدراك (ما النت) في عالمنا العربي؟

وهكذا تغيّب اللغة الفصحى في ذلك العالم عن الناشئة؛ إذ لا تكاد تعرض لهم إلا لماماً؛ فإن دخلوا المدرسة وجدوا أنّ عليهم تعلّم لغة أخرى غريبة تماما عن عالمهم الذي ضمهم زهاء ست أو سبع سنوات، والمطلوب هذه المرة أن يحصّلوا المعرفة والعلم بهذه اللغة التي لم يستقر منها أيّ شيء في مخزونهم اللغوي، فأذهانهم تكاد تخلو منها، بعد أن عجّت بمفردات ومركبات عامية وأعجمية، وأنى لهم والحالة كذلك أن يتعلموا هذه اللغة الغريبة التي تبدو لهم صعبة عويصة عسيرة متحجرة، فيضرب بينهم وبينها بسور له باب، ظاهره تمدّن وتحضّر يظهر من خلال جهاز ذكي يلازمهم ملازمة الظلّ، وباطنه جهل لا يقيم لغة ولا هوية ولا شخصية ولا ثقافة ولا معرفة.

وقد يقول قائل هنا: وهل أنت فعلت هذا مع أولادك قبل أن تطلب إلى الناس هذا؟

أقول: نعم، فعلته مع ولديْ وابنتيْ. وكان لهذا ثمرة كبرى في الحياة الفكرية والعلمية والثقافية والعملية لهما، وحسبي أن ولديْ قد نقصت درجاته عن المجموع الكامل درجتين في الشهادة الثانوية (البكالوريا)؛ لأنه غفل عن سؤال له درجتان في مادة العلوم، وأنه الآن يكمل الدراسات العليا في طب الأطفال في مشفى الأطفال بدمشق.

وأريد أن أسوق قصة حصلت مع أخ وزميل كريم تدلّ على مدى تمكّن ولدي من اللغة، ذلك أن هذا الزميل الفاضل كان يناقش حلقات البحث لطلاب السنة الثالثة في قسم اللغة العربيّة في مقرر النحو، وكان يسألهم عن إعراب مصدر مؤول وقع في شاهد نحوي، فلم يقع على الإعراب الصواب في إجاباتهم، وإِذ بولدي يدخل عليّ في مكتبي في قسم اللغة العربية، فيراه زميلنا، فيقول لطلابه: هذا طالب في كليّة الطب- وكان على دراية بشغفه بالعربيّة- سأسأله عن إعراب المصدر المؤول، فسأله أمامهم، فأجاب الجواب الصحيح.

وأمّا البنت فهي الآن مهندسة معمارية، وعلى بعد المسافة الآن بين تخصصها في الهندسة واللغة والأدب؛ فإِنَّها درجت على قراءة

كثير من الكتب والروايات، ولا يكاد ينقضي أسبوع إلاّ وقد قرأت كتاباً أو رواية، وما كان لها هذا التعلّق بالقراءة لولا ذلك السماع والحفظ الذي اكتسبته في مرحلة ما قبل المدرسة.

وعليه يستطيع المرء أن يقطع بأن من يملك الموروث اللغوي والأدبي والفكري والثقافي أعانه على التعلّم في المدرسة؛ لأنّ كثيراً من التراكيب والمفردات المسموعة والمحفوظة على نحو صحيح تجري مجرى الدم والاسم منه، وعليه سيكون تحصيله العلمي والمعرفي سليماً وجيّداً؛ وإنّ أدنى مقارنة بين هذا الغلام الذي سمع كثيراً من فصيح الكلام في صغره، وحفظه لهو مختلف أشد الاختلاف عن غلام ليس في مخزونه اللغوي والفكري والثقافي أيّ شيء ما خلا اللهو بالألعاب التي تغزو شبكة المعلومات والهواتف الذكية، ونشر الصور عبر مواقع التواصل محاكياً ما يراه من والديه، وربما تراه يكتب بالحروف اللاتينية التي أتقنها نتيجة تواصله مع أقرانه، ويزيد في الطين بلّة أن هذا الغلام يظن نفسه أنه بامتلاكه هاتفاً ذكياً أو جهاز الحاسب قد صار أبا الثقافة والمعرفة والتّحضّر والتّمدن والرّقي، وأن تنقّله عبر مواقع شبكة المعلومات قد أكسبه المعرفة والعلم، وأنّ متابعة الألعاب على الأجهزة الذكية والوصول

إلى مستويات متقدّمة يجعله أبا المهارة والذكاء وحلّ كل عويص عسير، حتى إنه ليخيل إليه أنّ أعضل مشكلة يطيق حلّها لما يمتلكه من خبرة في تجاوز كل صعب وكلّ لغز في تلك الألعاب. وواقع هذا الغلام أنه لا يطيق إقامة تركيب عربي، لأن مخزونه اللغوي يكاد يكون خلواً من أي تركيب، فهو يعاني الضعف الشديد في اللغة، لذلك تراه يردّ كل إخفاق لديه إلى اللغة نفسها، فهي لغة متحجرة جامدة باردة لا تصلح أن تُواكب هذا الزمن الذي يفيض بالتقنية والمعرفة والعلم، وإذ ذاك يجد هذا الناشئ شماعة يعلّق عليها إخفاقه العلمي والفكري؛ ليكون في قابل الأيام بوقاً من الأبواق التي تردّ تخلّف مجتمعنا إلى اللغة وإلى كل ما يمتّ إليها بصلة.

هذا ما يتصل بالسماع الفصيح في الأسرة، ويزيد في تعميق هذا السماع للفصيح وسائل الإعلام، فعندما تُلزَم هذه الوسائل على بثّ أي معلومة صغرت أم كبرت باللغة الفصحى، يعيش هذا الطفل في بيئة تمنحه مزيداً من سماع الفصيح، في برامج الأطفال خاصة، فسماع الفصيح في هذه الحالة يُلاحق الطفل، ويزيد في موروثه اللغوي.

وقد يقول قائل: إنّ مثل هذا السماع يقيّد الطفل، ويعيق حركته وتفكيره، لأن اللغة الفصحى هي صعبة وعويصة وعسيرة، وهذا

كلّه محض افتراء، لأن العربيّة لم تكن في يوم من الأيام تقف في وجه الناشئة؛ بل إنّ امتلاك الناس لناصية هذه اللغة في العصور السابقة جعل منهم العلماء والمفكرين والكتّاب والشّعراء، والطفل أصلاً في هذه المرحلة مهيّأ لاكتساب اللغة سماعاً، والعلم الحديث يؤكد أن الطفل المتوسط الذكاء يستطيع أن يكتسب غير ما لغة من بيئته، والقصص التي نراها في الواقع أكثر من أن تُحصى، ويعرفها الصغير قبل الكبير، فكم من طفل أمّه إنكليزية أو فرنسية أو روسية أو ألمانية... ووالده عربيّ يتقن لغة أمّه وأبيه معاً في عمر ما قبل دخول المدرسة نتيجة سماعه فقط، وهذا الأمر طبيعي جداً، لأن الطفل في هذه المرحلة مهيأ للسماع والحفظ، لذا نرى أن الطفل يحفظ ما يسمع على نحو غريزي سهل، فالله أودع فيه هذا كي تُبنى لغته البناء الصحيح عن طريق السماع الصحيح؛ فإن أُهمل هذا الجانب كما في أيامنا هذه وجدنا أن الطفل يحفظ أشياء لا تُعينه على بناء لغته؛ وذلك حسب البيئة التي نشأ فيها؛ فإن كان أبوه مغرماً بكرة القدم مثلاً ألفيت هذا الطفل يحفظ أسماء الفرق المحلية والعربية والأجنبية وأسماء اللاعبين، ومن يدرب الفريق الفلاني، ومَنْ مِنَ اللاعبين غادر النادي الفلاني إلى ناد آخر؛ لأن النادي الجديد اشتراه بالمبلغ الفلاني، وقد

يذكر لك الرقم بدقة فائقة، وربما تعدّى هذا إلى الكلام على خطيبة هذا اللاعب أو زوجه أو أولاده وزيارته إلى البلد الفلاني، وماذا فعل فيه، وكيف استقبله الناس، وربما حدّثك عن تهرّب اللاعب الفلاني من الضرائب... إلخ هذه المعلومات المفصّلة التي تكشف عن ذهن يستوعب ويحاكي كل ما يراه ويسمعه، فإن كان الاستعداد الفطري يمنح الطفل حفظ كل ما يسمع فلمَ لا نستغل هذا الاستعداد بما يفيد هذا الطفل في أهم خاصة في حياته وهي اللغة.

ولكن ويا لعظيم الأسف إنْ وصل الأمر إلى اللغة، وشرعت الأسرة بتدريب الطفل على السماع الصحيح السليم للّغة، وتكرار هذا السماع على مسامع الطفل كي يحفظه، ويصبح جزءاً من مخزونه اللغوي والثقافي الذي يفزع إليه في قابل الأيام، فيكون معيناً له على تلقي الفكر والثقافة والمعرفة وعلى بناء الشخصية القوية التي تعتز بأمتها ولغتها.. أقول: إنْ وصل الأمر إلى هذه المرحلة وجدت أصواتاً تدّعي أنها تشفق على هذا الطفل؛ وتنادي بإطلاق سراحه من هذا الكدّ والتّعب والضّنك الذي نمنحه له عبر السماع والحفظ، وتشعر من كلام هؤلاء أن الطفولة قد انتهكت، وأنّ من يفعل هذا مع أطفاله يجب أن يُحال إلى محكمة (لاهاي).

لماذا نرى الأسر في أوروبا وأميركا يحرصون أشد الحرص على تعليم أطفالهم اللغة الأم، ويبذلون في سبيل هذا الوقت والمال، ويبتكرون الطريقة بعد الأخرى، ويجرّبون ذلك على أطفالهم، فترى أن تعليم اللغة لأطفالهم يتقدّم خطوة بعد خطوة، ولم نسمع أن الأسر فيها تشفق على أبنائها وهي تتعلم لغتها القوميّة، وتبني عن طريقها شخصيتها، وتدرّبها من خلال ذلك على صقل الفكر، وعلى تحصيل المعرفة، والاعتزاز بلغتها لأنها من الملامح الأساسية للشخصية والهوية التي هي موضع اعتزاز عند الصغير قبل الكبير، فنرى جلّهم لا يتكلم مع قادم إلى بلادهم بلغة أخرى غير لغة بلده، وهو أمر يعرفه كلّ من زار ألمانيا وإنكلترا وفرنسا، وغيرها من البلاد. وأما نحن فنتراجع خطوات إلى الوراء، ومن نظر في لغة الأجيال اليوم، ولغة الناس قبل خمسين سنة يجد البون كبيراً، كنتَ وقتئذٍ لا تكاد ترى طالباً حاز الشهادة الابتدائية يخطئ في الإملاء، وخريجو أقسام اللغة العربية اليوم في كلّ البلاد العربية ترى عندهم ابتكارات في الرسم الإملائي يندى لها الجبين.

وأمام هذا فإني أدعو كلّ أب وأم أن يبذل المزيد من وقته في سبيل تحصيل سماع قويم صحيح لأبنائه، ويجب أن تتحول بيوتنا إلى

منارات تؤسس للعلم والمعرفة، وليس للصخب والضجيج في سماع قبيح الأصوات عبر برامج تصرفُهم عن لغتهم وثقافتهم.

لا علم ولا معرفة دون لغة، ولا لغة دون سماع وحفظ، هذه هي الحقيقة التي علينا أن نواجهها بكل مسؤولية، فالحقيقة المرّة أهون من الوهم المريح، وعلينا جميعاً أن نروّج في مجتمعنا قيمة السماع والحفظ في تحصيل الموروث اللغوي السليم، وأن يُظهر الإعلام أهمية ذلك، وأن يعمل على هذا ليلاً ونهاراً بكل جدّ ودأب، فهذا من وظيفته الأساسية، فالإعلام الجاد هو الإعلام الذي يبني الهوية والشخصية، ولا هوية ولا شخصية لمن لم يمتلك ناصية لغته.

وقد يقول قائل: إنّ ما تسوقه لهو ضرب من التحليق في عالم الخيال، فهو مثاليات لا يمكن أن تتحقق في مجتمعنا؛ إذ كيف يمكن لهذا العالم العربي الذي يغرق في التخلف والجهل وربما الأميّة أن تكون أُسَرُه وأبناؤه على ما بيّنتَ؟

أقول: إن غرس الوعي في الأذهان لأهمية اللغة وقيمتها في حياة الأفراد والشعوب عن طريق الإعلام أولاً، والمدارس

والجامعات ثانياً سيكون له كبير الدور والأثر في نقل مجتمعنا نقلة نوعية، وهذا الأمر ممكن التحقيق، فكم من بلد خرج منهكاً من حروبه مدمّراً تدميراً شبه كامل؛ لكنه أطاق النهوض خلال بضعة عقود، وتجربة اليابان وألمانيا وأندونيسيا وماليزيا وسنغافورة ليست ببعيدة العهد عنا؛ بل إن نهوض العالم العربي يمكن أن يكون أسرع من نهوض تلك البلاد؛ لما يتملكه من لغة واحدة وتاريخ واحد وتراث واحد.. ولا أبالغ إن قلت: إنّ الروابط التي تجمع بيننا نحن العرب ربما تصل إلى نسبة ٩٠% أو أكثر، على حين أن ما يجمع بين شعوب أوروبا لا تصل نسبته في أعلى الحالات إلى ١٥%، وهم أطاقوا أن يجعلوا من هذه النسبة الضئيلة اتحاداً متكاملاً في كل شيء، ونحن استطاعنا عندما فرّطنا بلغتنا وشخصيتنا وهويتنا وتراثنا أن نحطّم كل ما يجمع بيننا، لنعود قبائل وطوائف تتقاتل على هزيل الفتات، فذابت شخصيتنا وتراثنا ولغتنا، وصرنا في آخر شعوب الدنيا، وليس من سبيل لنا في النهوض من هذه الكبوة إلا أن تستعيد الأمة هويتها، وما من شيء يعيد الهوية أكثر من اللغة.

لذا على الإعلام أن يشحذ الهمم، ويبذل الغالي والنفيس في سبيل إعادة بناء الشخصية العربيّة والهويّة العربيّة، وأن يكون هذا الهدف في مقدّمة أهدافه، والإعلام له الدور الكبير في هذا، فإن كان فيه رجالات غُيرٌ على العربيّة فعليهم أن يروّجوا كلّ ما يدعم سماع الفصيح في الإعلام؛ لأن تكرار هذا سيكون له وقع كبير على أسماع الناس، والناس تُحاكي ما تسمع.

وقد يقول قائل: وهل تريد من الإعلام أن يخاطب الناس اليوم بلغة العصر الجاهلي، ونحن في عصر الذّرة والعلم والتقنية؟.

من يتصوّر هذا فهو على خطأ كبير، لأن طبيعة اللغة العربيّة أصلاً ترفض هذا، فهي لغة مرنة مطواع تصلح لكل عصر كما سلف، لذا المطلوب أن نخاطب الناس بلغة فصحى سهلة يسيرة تُراعى فيها الضوابط والقواعد، وتُصْطفى المفردات والتراكيب التي تناسب زمننا، وهذا أمر ميسور؛ وأكبر دليل على ذلك أن كثيراً من شعر الشعراء المحدثين ترى فيه السهولة واليسر والتركيب الجيّد، مثل شعر أحمد شوقي ونزار والسياب وحافظ إبراهيم وعمر أبو ريشة وعلي محمود طه، بل إن كثيراً من هذا الشعر الفصيح

الجميل لُحّن فطرق أسماع الناس، ودخل القلوب وطربوا له أيّما طرب، ولا أريد أن أعدد أسماء القصائد الفصيحة التي فشت بين الناس في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي فهي لمّا تزل تطرق المسامع إلى يوم الناس هذا.

وعليه فإن حثّ الأسرة على ضرورة توافر السماع الفصيح من موروث العربيّة، والحفظ اليومي لنص فصيح من ذلك الموروث لهو خطوة أولى سيكون لها الأثر الكبير في بناء اللغة لدى الناشئة، وهذا لا يكفي وحده؛ لأنه لا بدّ من تضافر هذا مع خطوة أخرى تستمر في دور الحضانة في مراحل ما قبل المدرسة، وأغلب الظن أن كثيراً من الأُسر اليوم تُدخل أطفالها تلك الدور.

وثمّة خطوة ثالثة وهي أن يُتابع هذا السماع لفصيح النصوص من موروث التراث، ويتتابع الحفظ لنصوص تُختار من قبل مختصين في مجالات التربية والأدب واللغة؛ وبهذا يحصّل الناشئة موروثاً فصيحاً يستقرّ في أذهانهم، ليكون عوناً لهم يفزعون إليه خلال مراحل التعليم الأساسي والثانوي؛ ولا تكتمل الدائرة إلا بخطوة أخيرة وهي أن يقرع الإعلام في وسائله كلّها مسامع

الناشئة فيما يفشيه عبر العربي الفصيح السهل الأنيس النّدي الذي يحبب هذه اللغة للناشئة؛ فيعيشون في عالم العربيّة الساحر أنّى توجّهوا، وهكذا تكون البيئة التي عاشوا فيها بيئة تبني اللغة البناء السليم؛ فإذا بها تجري منهم مجرى الدم؛ وإذا بك تطالع عندئذٍ سحر اللغة عند الطبيب والمهندس والمعلم والقاضي والمحامي والإعلامي... وسيكون حتى لدى عامة الناس ممن سمع الفصيح، وعاش في تلك البيئة الفصيحة حظّ من العربيّة يمكّنه من القراءة والكتابة الصحيحة، ومن الغيرة على لغته، بحيث يدرك أثر السماع في بناء اللغة لدى أبنائه؛ فيشربهم حبّها؛ لأنه درج هو أصلاً على حبّ لغته.

إن هذا هو الحدّ الأدنى الذي لا بدّ أن يتوافر عند كل أُسرة في سماع الفصيح، وأمّا إن ألفَتِ الأسرةُ أنّ أحد أبنائها لديه حظّ أعلى من باقي أخوته في الذكاء والاستيعاب والحفظ، وأن لديه قدرات أعلى وطاقة أكبر، ففي رأيي أن هذا المستوى في السماع والحفظ لا يكفي؛ إذ لا بدّ في هذه الحالة من تمكين العربيّة لديه في مستوى آخر سيأتي الكلام عليه في السطور الآتية.

ثانياً: البناء اللغوي على مستوى السماع والحفظ للمتميّز من الناشئة:

إن الفوارق الفرديّة بين الناشئة أمر طبيعي، إذ لا يمكن لهم أن يكونوا في مستوى ذهني واحد من الاستيعاب والحفظ وسوى ذلك، وهذا التفاوت بين الناس عموماً هو أصل من أصول وجود الإنسان في هذه الحياة؛ لأن الناس لو كانوا على مستوى واحد في كل شيء لما عمرت الأرض؛ فهذا التفاوت هو الذي جعل فيهم الطبيب والمهندس والمعلّم والمحامي والنجار والبلاط والحداد والكهربائي والميكانيكي وعامل النظافة والمخترع... إلخ، وعليه فإن هذه الفروق تبدأ بالظهور لدى الأسرة، فكل أسرة تعرف مدى إمكانية ولدها؛ وربما يكون ما سقته من كلام في تمكين السماع في كل أسرة عوناً للوالدين على معرفة حدود أبنائها، فإن وجدا أن أحد الأبناء لديه حظّ أعلى من أخوته في مجال الحفظ والسماع والمحاكاة فيجب في هذه الحالة العناية به على نحو مختلف عن أقرانه؛ ولهذا علينا أن نميّز بين هاتين الحالتين؛ ونتعامل وهذا

الموضوع بكل صدق وشفافية ووعي؛ فمن وجدنا فيه تلك القدرة فعلينا أن نعامله معاملة أخرى في هذا المجال.

وهنا لا يكفي هذا الطفل ما تقدّمه له الأُسرة أو رياض الأطفال أو المدرسة؛ لأنه والحالة هذه يجب أن نرفع من مستوى الحفظ والسماع عند المتميّز، ليكون حظّه أعلى.

ومن أجل هذا أرى أن يُلحق هؤلاء الناشئة برياضٍ للأطفال خاصة بهم، تماماً كما يُلحق المتميّزون اليوم في المرحلة الثانوية بمدارس خاصة بهم، لا يدخلها إلاّ المتميّز حقاً، وتلك الرياض الخاصة يجب ألا يلجها إلا من كان لديه تميّز، وفي هذه الحالة تُجرى الاختبارات الخاصة التي تظهر المتميّز من سواه، تماماً كما تفعل مدارس المتميّزين في المرحلة الثانوية، فمن كان مؤهلاً لها فعلى الرّحب والسّعة.

وبعد اصطفاء أولئك يبدأ العمل مع هذه النخبة، وهذا العمل لا ريب أنه سيكون شاقاً ومكلفاً وعسيراً؛ والوصول إلى ثمرته يعوزه الجهد بعد الجهد، والتخطيط والبحث والتطوير، وكلّ ما يُبذل في هذه السبيل لن يكون هباء منثوراً؛ لأننا في هذه

الحالة نعدّ النخبة الإعداد الصحيح السليم الذي سيكون له كبير الأثر في نقل الأمة من شأن إلى آخر.

وقد يقول قائل: إنك تحلم كثيراً، وهذا لا يمكن أن يكون في هذا العالم العربي الذي يعاني ما يعاني من مشكلات عويصة عسيرة على كلّ الصّعد.

أقول: إن تجربة أندونيسيا وماليزيا وسنغافورة والهند- وهي دول كانت تعاني مشكلات أعضل من مشكلاتنا- قد جعلتها خلال بضعة عقود تنقل بلادها من طور سحيق في التخلف إلى أعلى مدارج العلم، و تجربة (مهاتير محمّد) وسواه في هذا المجال تؤكد أنْ لا مُحال مع العمل المنظّم والمخلص والدؤوب. ومشكلتنا في العالم العربي أننا لمّا نزل من بدايات القرن العشرين إلى اليوم نجتر أحزاننا، ونبكي على الماضي، ونحيا فيه، ولا نفكر بالحاضر ولا بالمستقبل، لا عمل صحيحاً سليماً في الحاضر؛ يعني أن لا مستقبل لنا، هذه هي الحقيقة التي علينا أن نواجهها بكل جرأة، فإن مواجهة الحقيقة بكل جرأة الخطوة الأولى نحو نقل المجتمع من طور إلى آخر، وأفضل لنا ألف مرة أنّ نواجه الحقيقة

المرّة من أن نخدع أنفسنا فنعلّق أخطاءنا وكسلنا وعجزنا على شماعة أعدائنا، ونردد عدوّنا لا يريد لنا أن ننهض، فهو يخطط دائماً كي نبقى في مراتع الجهل والتخلف.

علينا أن نعلم جيّداً أن عدونا لا يكلّ ولا يملّ، ولا ينام، فهو يعمل ليلا نهاراً من أجل أن نهوي في مزيد من درك التخلف والتفرقة والجهل، وعلينا بالمقابل أن نواجه هذا بالعمل المخطط المنظم، العمل بصمت، كي تبقى هويتنا وشخصيتنا بين الأمم، وعلينا دائما أن نزرع بذور الأمل ونرعاها الرعاية الصحيحة حتى نتجاوز هذه الكبوة.

وبذور الأمل هذه إنما هي الناشئة، الناشئة المتميّزة خاصة، فما من ثروة تعدل تلك الثروة، فهي أهم من النفط والحديد وغيرهما؛ فما فائدة الثروة إن كانت تبدد يميناً وشمالاً، على ما نحو ما نرى، على حين أن دولة مثل اليابان تتضاءل فيها الثروات جداً، فلا نفط ولا غاز ولا حديد.. لا شيء من ذلك كلّه؛ ولكن الثروة الحقيقية والكبرى التي أعادت بناء اليابان بعد خروجه مهزوماً مدمّراً من الحرب العالمية الثانية، هي

سواعد أبنائه، فبات اليوم في مصافّ الدول الكبرى؛ وعلّة ذلك عنايته بالناشئة العناية القويمة، فما بالنا نحن العرب نهمل هذه الثروة الكبرى ونبددها في بلاد الهجرة؟ إذ ترى كثيراً من شبابنا يتسكّع على الموائد، ويقتات من الفتات في هاتيك البلاد، ومن لمسوا منه موهبة أو ذكاء وضعوه على أكفّ الراحة؛ ليفيدوا منه في بلادهم.

ولهذا علينا أن نُولي هذه الثروة من الناشئة المتميّزين كلّ رعاية واهتمام؛ كي يكون لهم الشأن الكبير في بناء هويتنا وشخصيتنا وأمتنا، وهذا البناء إن لم يرافقه بناء اللغة الصحيحة السليمة على نحو ما سلف فإنه لن يكون تام الأركان.

ومن هنا فإني أدعو إلى بناء اللغة البناء القويم والمحكم عند هذه الفئة المتميّزة، وفي رأيي أن السبيل القويم لذلك هو الإفادة من هذا الموروث اللغوي والأدبي والنقدي والفكري الذي بُني لبنة لبنة على مدى ثلاثة عشر قرناً أو يزيد، فكان صرحاً شامخاً قويّاً، يجب أن نفزع إلى ما يناسب حياتنا منه، أجل: أقول: إلى ما يناسب حياتنا ويواكبها، وعليه فإن أوّل خطوة يجب أن

تكون هي أن ينظر الغُير من أهل العلم في هذا الموروث، وأن ينصّوا على المصادر التي يمكن أن تفيد في بناء اللغة عند الناشئة المتميّزين؛ إذ تحدّد بدقة، فيُنصّ على المصادر في النحو والتصريف واللغة والبلاغة والأدب والشعر وشروح المجموعات الأدبية إلى غير ذلك مما يمكن أن يبني اللغة عندهم.

وبعد هذا الاصطفاء تُوضع الخطط العلمية المدروسة في كيفية الإفادة من هذه المظانّ، ولعلّ أظهرها طرائق تدريس مصادر التراث، وفي هذا المجال لا يجب أن يُترك الحبل على الغارب، فكلٌّ يُدرّس حسب رؤيته، بل لا بد من تدريب المعلمين المتميّزين على طرائق تدريس مصادر التراث للنشء المتميّز، ولكن قبل هذا على هذه الفئة من المعلمين أن تكون على علم ودراية بما في كتب التراث؛ لأن معلّماً يُدرّب على طريقة إعطاء معلومة لا يعرفها لا يمكن له أن يتواصل مع النشء التواصل السليم السديد.

ولعلّ أهم شيء في هذا المجال هو توظيف المعلومات التراثية في الحياة الفكرية والأخلاقية للناشئة؛ لأن هذا التوظيف له جانب

اجتماعي وتربوي يتصل ببناء الخلق القويم الكريم للأجيال، وله جانب لغوي أيضاً؛ إذ إن توظيف المعلومة في حياة الناشئة تجعلها أرسخ في مخزونهم اللغوي والفكري، ورحم الله أساتذتنا الذين درّسونا في المرحلتين الابتدائية والإعدادية لأنهم كانوا يحرصون على هذين الجانبين أشد الحرص؛ فكم من خلق كريم ترسّخ في الأذهان، وكم من عبرة وعظة اكتُسبت من قصة أو قصيدة أو مقالة...؛ وهو مما جعل جلّ الناشئة في هاتيك الحقبة يحفظون تلك القصة أو القصيدة أو المقالة فبقيت في أعماق الموروث اللغوي الذي كان خير معين في استعمال اللغة على نحو سليم في الأعمّ الأغلب.

إنّ كلمات محمود شاكر مثلاً في أستاذه مصطفى صادق الرافعي لا تبرح الخيال والقلب، وإنّ صدقها وبيان العربيّة الساحر في ثناياها ليكشف عن أي موروث لغوي نهل منه محمود شاكر ، قال:

« رحمةُ الله عليكَ! رحمةُ الله عليكَ!

رحمة الله لقلبٍ حزينٍ، وكبدٍ مَصدُوعة!

لم أَفْقِدْكَ أَيُّها الحبيبُ ولكنِّي فَقَدْتُ قَلْبي.

كنتَ لي أملًا أستمسِكُ به كلما تَقَطَّعَتْ آمالي في الحياة.

كنتَ راحةَ قلبِي كلما اضطربَ القلبُ في العناء.

كنتَ اليَنْبُوعَ الرَّويَّ كلما ظَمِئَ القلبُ وأحرقه الصَّدَى.

كنت فجرًا يتبلَّج نورُهُ في قَلْبي وتتنفس نسماته، فوَجدتُ قلبي...

إذ وجدتُ عَلاقتي بكَ.

لم أفقدكَ أيها الحبيبُ ولكني فقدتُ قلبي»[1].

إنّ التأمّل في أي تركيب من تراكيب محمود شاكر يكشف عن ذلك الموروث العميق الذي استقر في قلبه قبل لبّه، فعبّر التعبير العذب الصادق، ولست هنا في موضع تحليل هذه التراكيب الساحرة التي تأخذ بمجامع قلب المرء، فتلقي في النفس بهجة تجعل المرء يحلّق في آفاق هذه اللغة الساحرة؛ على الرغم من وحشة المناسبة، ومرارة الفقد، وإنّ مقارنة جلّ ما نراه اليوم من طرائق التعبير عند مستعملي هذه اللغة في مجالات الأدب والفكر والإعلام وسوى ذلك؛ بهذا الأسلوب البهيج في التعبير ليكشف أنّه ما كان لمحمود شاكر أن يصوغ هذا البيان الأخّاذ لولا عمق موروث لغوي

---

(١) انظر: جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر ص٥.

وأدبي حصّله من معاشرة كتب الأدب واللغة والفكر، فنعِمَ بصحبتها، فغاص في عمق ثناياها؛ ليستخرج من كنوزها ودررها لوحات رحبة من تعابير أنيقة ندية رخية؛ كأنها الماء العذب الزلال.

وأمام هذا البيان الساحر أدع القارئ يتابع قراءة ما سطّره شاكر أحد أظهر علماء العربيّة في رثاء الرافعي:

«جزعي عليك يمسك لساني أن يقول، ويرسل دمعي ليتكلم. والأحزانُ تجدُ الدمعَ الَّذي تذوب فيه لتهونَ وتضَّاءَل، ولكنَّ أَحزاني عليك تجد الدمع الَّذي تروَى مِنْه لتنمو وتَنْتَشر.

ليس في قلبي مكان لم يرفَّ عليه حبي لك وهوَاي فيك، فليس في القلبِ مكان لم يحرقه حزني فيك وجَزَعي عليك. هذه دموعي تُتَرْجِم عن أحزانِ قلبي، ولكنها دموع لا تُحْسِنُ تتكَلَّم. عشتُ بنفسٍ مُجْدِبة قد انصرفَ عنها الخصب، ثم رحمَ الله نفسي بزهرتين تَرِفان نضْرة ورُوَاء. كُنْتُ أجدُ في أنفاسهما ثروة الروضة المُمْرعة فلا أحسُّ فقر الجدْب!

أما إحداهما فقد قطفتْها حقيقةُ الحياة، وأما الأخرى فانتزعتها حقيقةُ الموت، وبقيت نفسي مجدبة تستشعِرُ ذلَّ الفقر. تحت الثرى...

عليك رحمة الله التي وسعتْ كلَّ شيء، وفوق الثرى... عليَّ أحزان قلبي التي ضاقت بكلّ شيء، تحت الثرى تتَجَدَّدُ عليكَ أفراحُ الجنَّة، وفوق الثرى تتقادمُ عليَّ أحزان الأرض!

تحت الثرى تتراءى لرُوحِك كلّ حقائق الخلود، وفوق الثرى تتحقَّقُ في قلبي كلُّ معاني الموت.

لم أفقِدْك أيها الحبيب ولكنِّي فقدت قَلْبي

حضَرَ أَجلك، فحضرتني همومي وآلامي.

فبين ضلوعي مأتم قد اجتمعت فيه أحزاني للبكاء؛ وفي روحي جنازة قد تَهَيَّأَت لِتَسير؛ وعواطفي تُشَيِّعُ الميت الحبيب مُطرقة صامتة؛ والجنازة كلها في دمي في طريقها إلى القبر وفي القلب... في القلب تُحْفَرُ القبورُ العزيزة التي لا تُنْسَى. في القلب يجد الحبيب روحَ الحياة وقد فرغ من الحياة، وتجد الروح أحبابها وقد نأى جُثْمانها.

في قلبي تجد الملائكة مكانًا طَهَّرَته الأحزان من رجس اللذات.

وتجِدُ أجنحتها الروح الَّذي تهفهف عليه وتتحفَّى به.

هنا... في القلب، تتنزَّل رحمة الله على أحبابي وأحزاني، ففي القلب تعيش الأرواح الحبيبة الخالدة التي لا تَفْنَى، وفي القلب تُحْفَرُ القبور العزيزة التي لا تُنْسَى. لم تُبْقِ لي بَعدَكَ أيها الحبيب إلا الشوقَ إلى لقائك.

فقدتُكَ وَحْدِي إذ فقدك الناس جميعًا.

سَمَا بكَ فرحك بالله، وقعدت بي أحزاني عليكَ.

لقد وجدتَ الأنْسَ في جوارِ رَبِّك، فوجدتُ الوحشة في جوار الناس.

لم أفقدك أيها الحبيب ولكني فقدتُ قلبي.

لم تُبق لي بَعدَك إلا الشوق إلى لقائك.

رحمة الله عليك، رحمة الله عليك!»[1].

وهذا غيض من فيض؛ يراه الناظر في طرائق كثيرين من المعاصرين والمحدثين الذي درجوا على سماع صحيح للموروث اللغوي والأدبي والفكري، فكانت قريحة الصحراء التي قرّت فيهم

---

(١) انظر: جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر ص٥-٧.

تمكّنهم من سحر البيان، وإن نظرة فيما تركه -على سبيل المثال- أعلام كبار من أمثال: محمد كرد علي والشنقيطي والعقاد والمازني والرافعي والمنفلوطي وشفيق جبري وشكري فيصل وعبد السلام العجيلي والأستاذ أحمد راتب النفاخ والأستاذ سعيد الأفغاني والشيخ بدر الدين الحسني والشيخ الطنطاوي والدكتور أمجد الطرابلسي والدكتور شاكر الفحام والعلامة عبد الرحمن حاج صالح، وسواهم كثير من أعلام الفكر والأدب واللغة لتنمّ عن أثر الموروث فيما سطّروه، فكان وقع لغتهم على الأسماع والعيون وقعاً يأخذ المرء إلى عوالم من السحر تسمو بالروح والقلب والعقل إلى آفاق اللذة.

وما كان لهؤلاء وسواهم من أعلام الأدب واللغة والفكر أن يصلوا إلى ما وصلوا إليه لولا ذلك الموروث اللغوي والأدبي والفكري الذي نهلوا من معينه، فقد نهلوا من بيان الجاحظ ما نهلوا، وترسموا خطاه فيما ساقه في تعريف البيان، وحفظوا هذه الدرر وسواها مما ساقه: « وقالوا: البيان بصر والعِيُّ عَمًى، كما أن العلم بَصَرٌ والجَهْلَ عَمًى.

والبيان من نتاج العلم، والعيّ من نتاج الجهل.

وقال سهل بن هارون: العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل، والبيان ترجمان العلم.

وقال صاحب المنطق: حدّ الإنسان: الحيّ الناطق المبين.

وقالوا: حياة المروءة الصدق، وحياة الروح العفاف، وحياة الحلم العلم، وحياة العلم البيان.

وقال يونس بن حبيب: ليس لعيي مروءة، ولا لمنقوص البيان بهاء، ولو حكّ بيافوخه أعنان السماء.

وقالوا: شعر الرجل قطعة من كلامه، وظنه قطعة من علمه، واختياره قطعة من عقله.

وقال ابن التوءَم: الروح عماد البدن، والعلم عماد الروح، والبيان عماد العلم»[1].

ونهلوا من خصائص ابن جنِّي، فوقفوا على خصائص العربيّة وسحرها، وحفظوا كثيراً من كلام علامتها وشيخها، فسرَتْ طريقته في التعبير في طرائقهم، تلك الطريقة التي تطالعك أنّى

---

(١) انظر: البيان والتبيين ١ / ٨٢-٨٣.

حطّ بك الرحل في موسوعته الخالدة، وهل ثمّة من سحر يأخذ باللبّ كقول ابن جنّي في باب القول على أصل اللغة: «واعلم فيما بعد أنني على تقادم الوقت دائم التنقير والبحث عن هذا الموضع، فأجد الدواعي والخوالِج قويّة التجاذب لي مختلفة جِهاتِ التغوّل على فكري.

وذلك أنني إذا تأمّلت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها من الحكمة والدقّة والإرهاف والرقّة ما يملك عليّ جانب الفكر حتى يكاد يطمح به أمام غَلْوة السحر. فمن ذلك ما نبّه عليه أصحابنا رحمهم الله، ومنه ما حذوته على أمثلتهم فعرفت بتتابعه وانقياده وبعد مراميه وآماده صحّة ما وفّقوا لتقديمه منه، ولطفَ ما أُسعدوا به وفُرق لهم عنه وانضاف إلى ذلك وارد الأخبار المأثورة بأنها من عند اللهّ جل وعزّ، فقوي في نفسي اعتقاد كونها توقيفاً من الله سبحانه وأنها وحي.

ثم أقول في ضدّ هذا كما وقع لأصحابنا ولنا، وتنبّهوا وتنبّهنا على تأمّل هذه الحكمة الرائعة الباهرة، كذلك لا ننكر أن يكون الله تعالى قد خلق من قَبلنا وإنْ بعُد مداه عنّا مَن كان

ألطف منا أذهانا وأسرع خواطر وأجرأ جَنَاناً، فأقف بين تين الخَلّتين حسيراً، وأكاثرهما فأنكفئ مكثوراً وإن خطر خاطر فيما بعد يعلّق الكف بإحدى الجهتين ويكفها عن صاحبتها قلنا به وبالله التوفيق»[1].

ولست هنا في موضع يقف فيه المرء على تراكيب ابن جنِّي الأنيقة الندّية الرخيّة الأنيسة وقفة المتأمّل، فهذا موضع ليس مكانه هذه الكليمات، غير أني أريد أن ألمح إلى هذا الأثر النفيس، فهو أوفى المظان دقّة وشمولاً في هذا الباب، وتسميته ابن جني له بالخصائص تنمّ عن أنه أراد أن يظهر خصائص العربية، ويكشف عنها، وذلك عبر متعة اكتشاف المجهول من أسرار العربيّة. ففي باب في تلاقي المعاني على اختلاف الأصول والمباني يقول: « هذا فصل من العربيَّة حسن كثير المنفعة، قوي الدلالة على شرف هذه اللغة.

وذلك أن تجد للمعنى الواحد أسماء كثيرة، فتبحث عن أصل كل اسم منها فتجده مُفضيَ المعنى إلى معنى صاحبه»[2].

---

(١) انظر: الخصائص ١/ ٤٧.

(٢) المصدر السابق ٢/ ١١٣.

وفيه يقول أيضاً: «فالتأتي[1] والتلطّف في جميع هذه الأشياء وضمّها، وملاءمة ذات بينها هو «خاص اللغة» وسرّها، وطلاوتها الرائقة وجوهرها، فأما حفظها ساذجة وقمشها محطوبة هرِجة فنعوذ بالله منه، ونرغب بما آتاناه سبحانه عنه»[2].

وثمّة أبواب متراحبة ساقها أبو الفتح في مصنّفه الفذّ، لا يتّسع الموضع لسردها، أو للكلام عليها، فهو أمر يعسر أن يُحاط به في هذه الإلماحة، ناهيك عن ابن جني نفسه يدرك أن الكلام على خصائص العربية، بل على خاصة واحدة لا يكفيه ألف ورقة، يقول: « وهذا مذهب في هذه اللغة طريف غريب لطيف، وهو فقهها، وجامع معانيها وضامّ نشزها. وقد هممت غير دَفعة أن أنشئ في ذلك كتابًا أتقصَّى فيه أكثرها، والوقت يضيق دونه، ولعله لو خرج لَما أقنعه ألف ورقة إلا على اختصار وإيماء. وكان أبو علي -رحمه الله- يستحسن هذا الموضع جدًّا، وينبه عليه، ويُسَرُّ بما يُحضره خاطره منه. وهذا باب إنما يُجمع بين بعضه وبعض من طريق المعاني مجرَّدة من الألفاظ، وليس

---

(١) ألمح المحقق إلى أنه في إحدى مخطوطات الخصائص (التأني).
(٢) المصدر السابق ٢/ ١٢٥.

كالاشتقاق الذي هو من لفظ واحد، فكأنَّ بعضه مَنْبَهةٌ على بعض. وهذا إنما يعتنق فيه الفكرُ المعاني غير منبهته[1] عليها الألفاظُ، فهو أشرف الصنعتين، وأعلى المأخذين. فتفطّن له، وتأن لجمعه؛ فإنه يؤنقك ويُفيء عليك، ويبسط ما تجعَّد من خاطرك، ويُريك من حكم الباري -عز اسمه- ما تقف تحته وتسلِّم لعظم الصنعة فيه، وما أُودِعَتْه أحضانُه ونواحيه»[2].

ومثل هذه النصوص وأضرابها تشعرالنفس بالسمو والرقي في عالم العربية المسحور، وكيف لا يكون ذلك وأنت تحس باللمسات الندية ودبيبها اللطيف في كلمات أبي الفتح وعباراته اللطيفة الرخية الندية![3].

وقد أردت فقط مما سقته من خصائص أبي الفتح أن أصرف ذهن القارئ إلى هاتيك الطرائق في التعبير التي نهل منها علماؤنا، فأغنت موروثهم اللغوي والفكري والأدبي، فملكوا

---

(١) أشار المحقق إلى أنه وقع في نسخة (منبهة).

(٢) المصدر السابق ٢/١١٣.

(٣) انظر: (فقه اللغة بين الأصالة والحداثة)، مجلّة التراث العربي العدد١٤٢-١٤٣، ص١٠.

ناصية العربيّة، وإذ ملكوا ذلك ملكوا الفكر والعلم، فعبّروا عن كلّ ما دار في خلدهم أرق تعبير وأدقه وألطفه. ومثل هذه النصوص هي دعوة مفتوحة لأبناء هذا الجيل الذي حُرم متعة الوقوف على هذه الكنوز التي تطالعك في جلّ مصنّفات القوم، فكانت هادياً لهم إلى تذوّق النصوص التي جرت منهم مجرى الدم والاسم، وهو تذوّق أخذ بمجامع لبّهم مما جعل العربيّة تسري على لسانهم سهلة يسيرة ساحرة.

وإن من ينظر في كتب فقه اللغة يجد ذلك المعين الثّرّ الذي كان معواناً للقوم قديماً وحديثاً على النهل منه، فخلّف لديهم قريحة تجود بأدق التعابير وأجملها، وسأسوق بعض النصوص من كتاب فقه اللغة وسر العربيّة للثعالبي حجة على ما أدّعي؛ لتظهر ذلك المدى الواسع الذي تضعه العربيّة أمام أبنائها كي ينهلوا منها، فيستقيم اللسان، ويفعم الخاطر بعذب التعبير ورهفه ودقّته؛ وهذا بعض من كلام الثعالبي في الباب الحادي عشر في المَلء والامتلاء ، قال: ««الفصل الأوّل» في تَفْصِيلِ المَلْءِ والامتلاءِ.. عَلَى ما يُوْصَفُ بِهِمَا كَمَا نَطَقَ بِهِ القُرْآنُ، واشْتَمَلَتْ عَلَيهِ الأَشْعَارُ، وأفْصَحَ عَنْهُ كَلاَمُ البُلَغَاءِ وقَدْ يُوضَعُ بَعْضُ ذَلِكَ مَكَانَ بَعْضٍ.

فُلْكٌ مَشْحُونٌ[1]. كَأْسٌ دِهَاق. وَادٍ زَاخِر. بَحْر طَام. نَهْر طَافِح. عَيْن ثَرَّة. طَرْفٌ مُغْرَوْرِق. جَفْن مُتْرَعٌ. عَيْن شَكْرَى. فُؤَاد مَلآنُ. كِيسٌ أعْجَرُ. جَفْنَةٌ رَذُوم[2]. قِرْبَةٌ مُتأَقَة[3]. مَجْلِسٌ غَاصّ بأهْلِهِ. جُرْح مُقَصَّعٌ إذا كانَ مُمْتَلِئاً بالدَّم، عَنِ اللَّيْثِ عَنِ الخَلِيلِ. دَجَاجَة مُرْتَجَّةٌ ومُمْكِنَة إذا امْتَلأ بَطْنها بَيْضاً، عَنْ أبي عُبَيْدٍ.

الفصل الثاني «في تَفْصِيلِ كَميّةِ ما تَشْتَمِل عَلَيهِ الأوَانِي».

إذا كانَ في قَعْرِ الإناءِ أوِ القَدَحِ شَيْء فهو قَعْرانُ. فإذا بَلَغَ مَا فِيهِ نِصْفَهُ فهوَ نَصْفَانُ وشَطْرَانُ. فإذا قَرُبَ مِنْ أَنْ يَمتَلِئَ فَهُوَ قَرْبانُ. فإذا امْتَلأَ حَتَّى كادَ يَنْصَبُّ فهو نَهْدَانُ..

الفصل الثالث «في تَقْسِيمِ الخَلاَءِ والصُّفُورَةِ[4] عَلَى ما يُوصَفُ بِهِمَا مَعَ تَفْصِيلِهِمَا».

---

(١) شحن السفينة ملأها (القاموس المحيط).
(٢) رذوم: القصعة الممتلئة تصب جوانبها (القاموس المحيط).
(٣) تئق السقا امتلأ (القاموس المحيط).
(٤) أصفر البيت: أخلاه (القاموس المحيط).

أَرْض قَفْر لَيْسَ بِهَا أَحَد. ومَرْت[1] لَيْسَ فِيهَا نَبْت. دار خاوية لَيْسَ فِيهَا أَهْل. غَمَام جَهَام لَيْسَ فِيهِ مَطَرٌ. بِئْر نَزِح لَيْسَ فِيهَا مَاء، عَنِ الكِسَائِي. إِنَاءٌ صُفْر لَيْسَ فِيهِ شَيْء. بَطْن طَاوٍ لَيْسَ فِيهِ طَعَام. لَبَنٌ جَهِير لَيْسَ فِيهِ زُبْد، عَنْ سَلَمَةَ عَنِ الفَرَّاءِ. بسْتَان خِمٌّ لَيْسَ فِيهِ فَاكِهَة، عَنْ ثَعْلَبَ عَنِ ابن الأَعْرابِيِّ. شُهْدَة[2] هِفّ لَيْسَ فِيها عَسَل، عَنِ اللَّيْثِ عَنِ الخَلِيلِ. قَلْب فَارِغ لَيْسَ فِيهِ شُغْل. خَدٌّ أَمْرَدُ لَيْسَ عَلَيْهِ شَعْر. امْرَأَة عُطْلٌ لَيْسَ عَلَيْهَا حُلِيٌّ. بَعِير عُلُطٌ لَيْسَ عَلَيهِ وَسْم[3]. مَحْبُوس طَلْق لَيْسَ عَلَيهِ قَيْد. خَطٌّ غُفْل لَيْسَ عَلَيهِ شَكْل. شَجَرَة سُلُب لَيسَ عَلَيها وَرَقٌ. جَارِيَة زَلاءُ لَيْسَتْ لَهَا عَجِيزَة»[4].

إنّ المتأمل في أي باب من أبواب هذا السِّفر النفيس فقه اللغة وسرّ العربيّة للثعالبيّ يجد ذلك المدى والاتساع والدقة في

---

(١) المرت: الصحراء بلا نبات، أو الأرض لا يجف ثراها ولا ينبت مرعاها (القاموس المحيط).

(٢) الشهد: العسل وهنا بمعنى الشمع. (عن المحقق).

(٣) الوسم: أثر الكي(القاموس المحيط).

(٤) انظر: فقه اللغة وسر العربية ٦٢-٦٣.

التعبير، فهو في الباب السابق - وقد سقت قطعة منه - فصّل فساق الألفاظ والكلمات التي ينعت بها الشيء في الامتلاء والخلو، فكل شيء له لفظه المناسب له، لا يتعدّاه إلى سواه، فـ الفُلْكُ مَشْحُونٌ، والكَأْس دِهَاق، والوَادي زَاخِر، والبَحْر طَام، والنَهْر طَافِح، والعَيْن ثَرَّة، والطَّرْفُ مُغْرَوْرِق، والجَفْن مُتْرَعٌ، والعَيْن شَكْرَى، إلخ...

فكلّ لفظ في الامتلاء يناسبه لفظ يتّسق معه، ولا يجوز أن تستعمل لفظاً في الامتلاء أو الخلو لم تستعمله العرب، فلا يجوز مثلا أن تقول: فلك دهاق، وكأس مشحون، وواد طافح، ونهر زاخر..

فكلّ وصف وضع للفظ، وهذا يدلّ على دقّة العربيّة في التعبير، ومن ينظر فيما صنّفه اللغويون في الفروق اللغويّة يجد تلك الدقة والرهافة في ألفاظ العربيّة التي تنمّ عن إحساس عميق بقيمة اللفظ، فاللفظ في العربيّة لا يستعمل خبط عشواء؛ بل على نحو غاية في الدقة، وإليك بعضاً مما ساقه أبو هلال العسكري في كتابه الفروق اللغويّة. قال في الباب الثلاثين: «الْفرق بَين الهبوط وَالنُّزُول أَن الهبوط نزُول يعقبه إِقَامَة، وَمن ثمَّ قيل: هبطنا مَكَان كَذَا، أَي نزلنَا وَمِنْه قَوْله تَعَالَى:

﴿**اهبطوا مصرا**﴾[1] وقوله تَعَالَى: ﴿**قُلْنَا اهبطوا مِنْهَا جَمِيعًا**﴾[2] ومَعْنَاهُ: أنزلوا الأَرْض للإقامة فيها، وَلَا يُقَال: هَبَط الأَرْض إِلَّا إِذا اسْتَقر فِيهَا، ويُقَال: نزُول، وإِن لم يسْتَقرّ.

الْفرق بَين الظعن والرحيل أَن الظعن هُوَ الرحيل فِي الهوادج، ومن ثمَّ سُميت الْمَرْأَة إِذا كَانَت فِي هودجها ظَعِينَة، ثمَّ كثر ذَلِك حَتَّى سُمّيت كل امْرَأَة ظَعِينَة. والظّعان حَبل يشد بِهِ الهودج...والمظعون المشدود بالظّعان ثمَّ كثر الظّعن حَتَّى قيل لَكلّ رحيل ظعن والْأَصْل مَا قُلْنَاهُ.

الْفرق بَين الهنيء والمريء أَن الهنيء هُوَ الْخَالِص الَّذِي لا تكدير فِيهِ، ويُقَال ذَلِك فِي الطَّعَام وفِي كلّ فَائِدَة لم يعْتَرض عَلَيْهَا ما يُفْسِدهَا، والمريء المحمود العاقبة، يقال: مرئ ما فعلت، أي أشرفت على سلامة عاقبته.

وقال الكسائي: تقول هنأني الطعام ومرأني الطعام بغير ألف، فإذا أفردت قلت أمراني بغير همز.

---

(١) البقرة٢/ ٦١.

(٢) البقرة٢/ ٣٨.

وأمراني بغير همز، معناه: هضمته معدتي.»[1].

ومثل هذه الفروق بين الألفاظ تدلّ على دقّة العربيّة في التعبير، فهذا من غناها وتنوّعها، واللغة عندما تكون غنية ومتنوعة في طرائق تعبيرها تطيق التعبير عن أيّ معنى يخطر ببال مستعملها، فهي والحالة هذه تستطيع مواكبة الزمن، وإن لغة في هذا الغنى والاتساع والشمول والدقة لتستحقّ منا أن نتمسك بها، ونحافظ عليها، لا أن نهجرها إلى عاميات لا ضوابط ولا خصائص لها.

ولعلّ قائلاً يقول: هل تريد من الناشئة أن يسمعوا ويحفظوا ما ساقه أهل العلم في كتب فقه اللغة والفروق اللغويّة وسوى ذلك، إنّ هذا لأمر عويص صعب لا يمكن أن يتحقق البتة.

أقول: نعم أريد هذا وبكل وضوح وصراحة، وأنا لا أطلب هذا من كلّ الناشئة كما سلف، بل هو أمر يمكن أن نجعله بين من تميّز منهم لما لديهم من طاقات، فلم لا نستغل هذه الطاقة في الناشئة، فنجعلهم يقرؤون أبواباً من هذه الكتب من هو أهل لذلك، ثم تُصطفى النصوص المناسبة من تلك الكتب كي

---

(١) انظر: الفروق اللغويّة لأبي هلال العسكري ٢٩٦-٢٩٧.

يحفظها من تميّز منهم، على أن توزّع هذه النصوص على المراحل الدراسيّة المختلفة.

وقد يقول قائل: إنّ مثل هذه النصوص تعقّد الناشئة لما فيها من صعوبة في تراكيبها وألفاظها، ولعلّ هذا يحجبهم عن هذه اللغة، فيزيد في الطين بلّة!.

والجواب عن هذا أقول: إن هذا الكلام فيه جانب صحيح، فحفظ اختيارات من هذه النصوص لا يخلو من صعوبة وعسر، وتحصيل العلم عموماً فيه صعوبة وعسر، ومن يريد أن يتعلّم لا بد أن يعطي العلم كلّ شيء حتى يعطيه العلم بعضاً منه.

هذا جانب، وثمّة جانب آخر وهو أنّ هذه الصعوبة يمكن أن تذلل، فمن العبث أن نجعل المتعلّم يواجهها هكذا دفعة واحدة، إذ لا بدّ من تدريب الناشئة على اليسير المناسب منها لهم منذ نعومة أظفارهم، ثم نتدرج صعداً في الارتقاء بمستواها، على أنه إن غاب عن المعلم أن يغرس حبّ اللغة وتذوق نصوصها الشعرية والنثرية في نفوس الناشئة؛ فإن أيّ جهد يبذل سيكون في غير موضعه، فهذا كلّه إذن يجب أن يصحبه طرائق مشوّقة تحبب الناشئة في لغتهم، أضف إليه أن غرس حبّ اللغة في نفوس الناشئة له الأثر الكبير في

تلقي تلك النصوص، والأهمّ من هذا كلّه يبرح بال الناشئة أن هذه اللغة هي الهوية والشخصية، ومن دونها لا يمكن أن يكون للفرد وللأمة أيّ قيمة فكرية وثقافية وحضارية.

لمثل هذا يجب أن نعمل، وهو عمل - كما سلف - شاقّ وتُعوزه الجهود تلو الجهود، لأن نهضة الأمم ورقيّها في مراتب التقدّم والعلم والتحضر لا يأتي ممن يستكين للكسل والخمول والدّعة؛ فحضارة البشرية نمت وتقدّمت عبر السواعد القويّة التي لا تفتأ العمل ليل نهار.

ثم إنّ هناك جانباً لا بدّ أن يبدو، وهو أنّ من يبغي من أبنائنا إتمام دراسته العليا في بلاد الغرب تراه لا يهدأ له بال قبل أن يسافر إلى تلك البلاد، فهو دائم التنقير والتتبع للغة من يودّ أن يدرس عندهم، فهو ينتقل من معهد إلى آخر، ومن دورة إلى أخرى، وتكون لغة تلك البلاد هي همّه وغايته؛ لأنه يعلم أن أي تفريط فيها يعني أن ثمّة سوراً منيعاً سيضرب بينه وبين إكمال الدرس والبحث، لذلك تراه يتعلّم دقائق تلك اللغة في التعبير حتى يستقيم لسانه بها، وتراه إذ ذاك يتقن تلك اللغة الأعجمية، على حين أن حظّه من موروث لغته الفصحى نزر قليل.

وأمام هذا لمَ لا يقال: إننا نرهق أبناءنا في تعلّم هذه اللغة أو تلك، ولمَ لا نتحدّث عن صعوبة ذلك التعلّم، وما يواجه المتعلّم من عسر؛ بل ترى نقيض هذا، ترى الأهل يبذلون المال الكثير، ولا يدّخرون أي جهد في سبيل أن يتقن ولدهم تلك اللغة؛ بل إنك لتسمع من عبارات الثناء والتشجيع ما يشحذ نفس هذا المتعلّم؛ لتبقى في أعلى جاهزية كي يتقن تلك اللغة خير إتقان، فإن كان هذا ألفيت الأب والأم لا ينفكّان في مناسبة وغير مناسبة يفتخران بهذا الابن أو تلك البنت لما تحقّق من إتقان لطرائق تلك اللغة على يديهما.

والسؤال الذي علينا هنا أن نواجهه هو: لمَ يطيق أبناؤنا تعلّم لغة ليست لغتهم؛ على حين أن الأمر إن خصّ لغتنا الفصحى وضعنا العصي في العجلات؟

إنّ الناشئة التي تطيق بذل الجهد بعد الجهد في سبيل تعلّم لغة أخرى تطيق أن تتعلّم أسرار لغتها وخصائصها في التعبير، وهي تطيق كذلك سماع فصيح النصوص وحفظ ما يتناسب وزمننا؛ وهذا هو أسهل بكثير من تعلّم لغة أخرى فيما بعد؛ لأن

هذا التعلّم للفصحى إنما يدرج عليه الناشئة وهم في السنين الأولى من حياتهم، ويستمر صعداً في سنوات التعلّم.

وهذا لا يعني طبعاً أنني أعارض تعلّم لغة أخرى، بل أردت أن أظهر أن من جاوز سن الخامسة والعشرين ممن يبغي إتمام دراسته العليا يستطيع أن يتعلّم لغة أخرى غير لغته الأم، بدافع بناء المستقبل، فهذا يدلّ على أنّ مواصلة بذل الجهد يحقق ما يهدف له المرء ويقصد، ولكن مشكلتنا - نحن العرب -أن أيّ دعوة فيها بذل جهد في سبيل إتقان العربيّة لا تلقى أذناً صاغية، وهي دعوة تغرّد خارج السرب، وهي دعوة يسِمها كثير من الناس بالتخلف، وأن من يدعو لها إنما هو امرؤ يريد أن يعيد الناس إلى الماضي السحيق، ويرجع بهم قروناً إلى الوراء.

وهكذا تلقى مثل هذه الأصوات التي تحاول أن تنهض بالهوية والشخصية كلّ صدّ وتهكم وسخرية، وأصحاب هذه الأصوات التي تحمل همّ الأمة الكبير تكون حينئذٍ أصواتاً ناشزة، تُرمى بالتخلف.

إنّ المتأمل في حال رجالات الأمة في عصر النهضة يجد أن أولئك القوم لم تثنهم اللغة عن دعوات النهوض كي نلحق

بركب الأمم القويّة المتحضرة؛ بل على نقيض هذا كنت ترى مدى أثر الموروث الثقافي والحضاري والفكري في لغة فصيحة فشت على ألسنتهم، فكان لسانهم نديًّا رخيًّا بها، وكيف لا يكون لسانهم نديّاً بها، وجلّهم قد قرأ على الأشياخ من عيون المصادر ما قرأ، من مثل: أدب الكاتب لابن قتيبة، فهو من الكتب التي تمدّ متعلّم العربيّة بواسع المفردات والمعاني؛ فتكون عوناً له على الكتابة والتأليف، وحسب المرء هنا أن يسوق نصّاً قصيراً من كلام القتيبي حجة على تلك السعة في هذه اللغة، قال في باب النبات: «الخَلاَ» هو الرَّطب، و«الحَشِيش» هو اليابس، ولا يقال له رَطْباً حَشِيشٌ.

و«الشَّجَر» ما كان على ساق، و«النَّجم» ما لم يكن على ساق، قال الله عزّ وجلّ: ﴿**والنَّجْمُ والشَّجَرُ يَسْجُدَان**﴾[1].

و«النَّوْرُ» من النبت: الأبيض، و«الزّهرُ» الأصفر، يكون أبيض قبلُ ثم يصفرُّ؛ هذا قول ابن الأعرابي.

و«الأبُّ»: المرعى.

---

(١) الرحمن ٥٥/٦.

و«الوَرْس» يقال له: الغُمْرَة ومنه قيل: غَمَّرَت المرأةُ وجهَهَا»[1].

وهذا النص - وأضرابه كثير- يدلّ على سعة هذه اللغة في التعبير؛ لأنها لغة ناضجة مطواع، ومن ينظر في المصنّفات التي ألّفها أهل العلم في أدب الكتّاب وهي أكثر من أن تحصى يجد مدى حرصهم على بناء اللغة، فهذا ابن قتيبة وهو في القرن الثالث أزهى قرون العربيّة يتكلّم على ما اعترى الناس من ضعف في العربيّة؛ لأنهم خلدوا إلى الدعة؛ لذا فهو يشحذ الهمم كي يتزوّد الكاتب بالزاد الصحيح الذي يعينه على الكتابة، يقول: «فإني رأيتُ كثيراً من كُتَّاب أهل زماننا كسائر أهله قد استطابوا الدَّعَة واستوطؤُوا مركب العجز، وأعفَوْا أنفسهم من كدِّ النظر وقلوبهم من تعب التفكر، حين نالوا الدرَك بغير سبب، وبلغوا البِغْية بغير آلةٍ؛ ولَعمري كان ذاك فأين همةُ النفس؟ وأيُّ موقفٍ أخْزَى لصاحبه من موقف رجلٍ من الكتَّاب اصطفاه بعض الخلفاء لنفسه وارتضاه لسرّه، فقرأ عليه يوماً كتاباً وفي الكتاب: «ومُطِرْنا مطراً كثُر عنه الكلأُ»، فقال له الخليفة ممتحناً له: وما الكلأ؟ فتردَّد في

(١) انظر: أدب الكاتب ص٩٨.

الجواب وتعثّر لسانه، ثم قال: لا أدري، فقال: سَلْ عنه. ومن مقام آخر في مثل حاله قرأ على بعض الخلفاء كتاباً ذكر فيه «حاضرُ طيِّئ» فصحَّفه تصحيفاً أضحك منه الحاضرين..»[1].

وليت شعري إن كان القتيبي يشكو ما سرى إلى لسان قومه في ذلك الزمن الباهي فكيف بأبناء العربيّة اليوم، وقد نالت العامية منهم ما نالت، وبلغت منهم ما بلغت؟.

إنّ الغاية من هذه السطور تحفيز الناشئة على النهل من جيّد الموروث والإفادة منه من أجل بناء شخصية الحاضر، فلا يمكن أن يكون لنا شأن في هذا الحاضر بين الأمم، وأهم مقومات الشخصية - وهو اللغة - ليست بين يدينا، لذا علينا أن ننهل من مخزوننا الفكري والثقافي كي نبني المستقبل، ونعبّر عن هذا المستقبل بلغة العصر؛ بلساننا نحن، وليس بلسان يتكلّف ويتقعّر ويتمحّل، فهي إذن دعوة للعيش في المستقبل.

أجل نحن لا نريد من هذا الجيل أن يبقى حبيس الموروث، وأن يبقى يندب حظّه العاثر؛ لأنه عاش في هذا الحاضر المتخلف،

---

(١) المصدر نفسه ص١٠.

وحُرم من العيش في ظلال الماضي الرّخي الجميل؛ بل نريد من الناشئة أن يكون الموروث اللغوي والفكري والحضاري والثقافي محفّزاً لها على صناعة المستقبل.

وليت الناشئة اليوم تنصت إلى رأي شاعر الشام العلامة شفيق جبري الذي كان يرى أنّ العربية كائن حيّ ينمو ويلد ويعيش، فتخضع لما تخضع الكائنات الحية من قوانين الطبيعة في النشوء والارتقاء وتنازع البقاء، وأنها في تطور مستمر لما لها من سعة ومرونة يمكن أن نفيد منها في إغنائها وصقلها[1].

ومن ينظر في سلسلة المقالات التي خطّها د. شفيق جبري في مجلّة المجمع العلمي العربي بدمشق حول حياة الألفاظ وتطوّرها في العربيّة يجد فيما سطّره ثمّة أنّ هذه اللغة تطيق مواكبة التطور العلمي والحضاري؛ ولذا وجب على الناشئة أن ينهلوا من موروثها الغني؛ فيفيدوا منه في رسم آفاق المستقبل؛ هذا المستقبل الذي لا ينهض دون أدوات تعين على إنجازه،

---

(١) من بحث لمدحة عكاش، الموسوعة العربيّة، المجلد السابع (أعلام ومشاهير) ص٤٧٠.

وفي طليعتها تأتي اللغة التي لا يمكن من دونها أن ننفض غبار السنين عن كنوز التراث الدفين، فتجلوه للناشئة لينهلوا من معين عذب لا ينضب.

وثمّة كلمة أخيرة لا بدّ منها، وهي أنّ هذه الدعوة لسماع الفصحى منذ طور النشأة الأول، ثم حفظ النصوص المناسبة فيها كثير من الحلول لأعضل مشكلاتنا؛ لأن النشأة اللغويّة القويمة تعين الأجيال في قابل على التفكير الصحيح والسليم، فالبناء اللغوي السليم يعني بناء فكرياً سليماً؛ لأن وضوح اللغة يعني وضوح الفكر، فالفكر واللغة لا تنفك عراهما البتة، ولمّا كان لهذا البناء اللغوي هذه القيمة الكبرى في حياة بني البشر ألفيت دراسات ومباحث في علم اللسانيات الحديث تلج كلّ علم في حضارة الناس اليوم؛ وقد بات من المشهور الفاشي بين الناس مدى أثر علم اللسان في باقي العلوم؛ لذا بتّ ترى علم اللسانيات يلج علوم الفلسفة والاجتماع والنفس وسوى ذلك، فأصبح الشغل الشاغل للناس؛ لأن اللسان هو الأداة الرئيسية في كل بناء؛ هذا ما يراه المتتبع لأثر علم اللسان في الفكر الغربي

والحضارة الغربيّة، وكل ذي لبّ وبصر يعي هذا ويعرفه حقّ المعرفة؛ فلم لا ينبس من يدعي المعرفة والعلم والثقافة في عالمنا العربي ببنت شفة على صنيع الغرب في علم اللسان، وعلى كبير عنايتهم به؛ بل ترى كثيراً منهم يصفق لذلك، ويجعله من إفراز الحضارة الغربيّة ومن نور المعرفة والثقافة، بل تراه يرمي كلّ من كان حظّه بعلم اللسانيات نزر قليل بالتخلف، فإن تعالى النداء فينا لدراسة لغتنا والإفادة من موروثها وتوظيفه في بناء اللغة والفكر وُسِمَ ذلك النداء بكل نعوت التخلف!

نتائج ومقترحات:

مما سلف نخلص إلى ما يأتي:

- إن حدّ اللغة هو أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم، وهذا الحدّ لا تتأتى منه الغاية إن كان ثمّة ضعف أو نقص أو خلل في البناء اللغوي؛ إذ كيف يطيق المرء أن يعبّر عن غرضه، وينقل ما يدور في خلده، وليس في جعبته بضاعة يفزع إليها، أو كان حظّه منها نزراً.
- يبنى التكلّم على ملكة السماع؛ فإن كان ما يسمعه الطفل صحيحاً حاكى ذلك، وعلى هذا يلزم أن نضع يدنا على الجرح ونكون غاية في الصراحة، وأن نواجه هذا السؤال دون لفّ أو مواربة: هل ما يسمعه أطفالنا يعينهم على استعمال اللغة استعمالاً سليماً؟
- قد تحقق العامية الغرض في التواصل بين الناس، ولكن هذا التواصل ضيّق الحدود والأفق؛ ولو اكتفى كل قوم بالعامية التي درجوا عليها لضاق أفق اللغة، وبقي انتشارها محدوداً

في بيئتها، واللغة حين تكون كذلك تبقى في ضيّق حدود الفكر والعلم والاستعمال، ولا تخرج عن بيئتها.

- يظنّ كثير من الناس أن ترسيخ العامية بين الناس في جعلها لغة للتواصل أفضل الحلول، وأمام هذا فالسبيل القويم في نظرهم هو المقاربة بين العاميات، واصطفاء عاميّة تكون موضع قبول من الجميع.
- إن المقاربة بين العاميات تعني اختراع لغة جديدة، واختراع لغة جديدة يعوزه وقت كبير وجهد متواصل، إذ ليس من اليسير أن يتواضع القوم على مصطلحات جديدة، ومسمّيات جديدة، توضع ضمن ضوابط وقواعد، ويكون لها أصول، تكون محلّ قبول وتوافق، وهو ليس بالأمر الهيّن، ثم هبْ أنْ أمكن هذا، فكم من الكوادر التي يعوزها التدريب والرياضة بعد الرياضة حتى تفشو بين الناس، وهو أمر يعوزه الجهد والمال الكثير، وثمرة نجاحه ضئيلة؛ لأن قبول لغة جديدة لدى شرائح المجتمع المتفاوتة في الثقافة والمعرفة والعادات والتقاليد أمر جدّ معقّد.

- إن من أظهر خصائص هذه اللغة أن تكون في العقل الجمعي للأمة، وأن تصل بين الماضي والحاضر والمستقبل، وأن يستطيع أي عربي في عصرنا أن يفهمها إن سمعها، أي أن تكون لغة تصلح للتواصل بين مشرق الوطن العربي ومغربه، وشماله وجنوبه، وأن يكون لها ضوابط ومعايير وأسس هي موضع اتفاق بين الناس قديماً وحديثاً، وأن تكون مفرداتها مجموعة في المعجمات والمصادر، وأن تكون غنيّة بالمفردات، بحيث تكون هناك سعة أمام مستعمل اللغة في التعبير عمّا يجول في خاطره، وأن تكون أساليبها وطرائقها معروفة نصّ عليها أهل اللغة، وأن تكون لغة الكتابة والتدوين والعلم والفكر والحضارة، وأن تصلح لكل عصر إلى غير ذلك من خصائص... فهل هذه الخصائص تنطبق على العاميات الفاشية في الأمصار العربيّة؟؟

لا ريب أن هذه الخصائص لا تراها في أيّ عامية، ولذا لا تصلح العامية أن تكون لغة مشتركة بين العرب.

- ولذا سيق في هذا المجال رؤية معيّنة كي يقوم البناء اللغوي عند أبناء العربيّة على أسس واضحة تعينهم على إتقان لغتهم.

- فمن ذلك أنه يجب أن نُولي سماع الفصيح جانباً كبيراً من حياة أبنائنا، وهذا السماع هو الذي تقوم عليه اللغة، ومعلوم أن البيئة المثلى لهذا السماع هي السنوات الأولى من حياة الطفل، فعلينا أن نعمّق سماع الفصحى في هذه المرحلة، وهذا يكون بخطوات فعلية تقوم بها الأسرة؛ لأن السنوات الأولى من حياة الطفل تكون مسؤولية الأم والأب بالدرجة الأولى، فعليهما أن يوليا سماع الفصحى في هذه المرحلة العناية والرعاية.
- إن المعضلة الرئيسية في رأيي تكمن في أن هذا السماع مستبعد من حياة الوالدين تماماً؛ وذلك لأنهما يجهلان مدى أثره في تلقي اللغة الصحيح في شخصية الطفل في قابل الأيام، فلو كان هناك الوعي الكافي لأهمية اللغة في حياة الطفل، وأثرها الكبير في بناء شخصيته السّويّة لألفينا أن الوالدين يبحثان ويسألان ويستقصيان عن السبل الصحيحة والقويمة في بناء السماع الصحيح لدى الطفل، تماماً مثلما يمنحانه العناية والرعاية الصحية والنفسية والاجتماعية والجسدية، بحيث تصبح العناية اللغويّة لا تقل شأناً عن ذلك؛ ولكن ضعف

الوعي في هذا الجانب يجعل الحياة اللغويّة للطفل في آخر حسابات الأسرة، ولهذا علينا أن نمكّن هذا الجانب لدى الأب والأم، والتمكين له يكون بالتوعية والتبصير.

- ولعل الإعلام يكون له الدور الأول في هذا المضمار، فالإعلام عندما يكون من همومه الأولى بناء اللغة الصحيحة عند الأجيال تراه كل يوم يخصص جانباً منه في وسائله الأكثر انتشاراً لتبصير الناس بمدى قيمة اللغة في حياتهم، ويعطي الفكرة تلو الأخرى في بناء سماع صحيح في الأسرة، وذلك عن طريق خطط مدروسة يشرف عليها كبار المربّين والمفكرين والإعلاميين واللغويين.
- يجب أن يُعمَّق في نفوس الناس على طول العالم العربي وعرضه أن للّغة دوراً كبيراً في حياتنا؛ ذلك أن اللغة تمدّ المرء بالثقافة والفكر والوعي، والتعلّق بها يمدّ المرء بالتحصيل المعرفي والثقافي عبر القراءة المستمرة طيلة الحياة، وهي تفتح له مجالات متراحبة في حياته.
- وعليه فإن تحصيل اللغة القويم هو النقلة التي تنقل الأمم من طور إلى آخر، وهذا التحصيل لا يأتي بالتمني والأحلام،

بل يأتي بالكد وبذل الجهد بعد الجهد، لذلك تبذل الأمم اليوم الجهد والمال في سبيل هذه الغاية، ومن ينظر ما تفعله (إنكلترا) مثلاً في سبيل نشر لغتها بين أبنائها، وبين شعوب الأرض يعرف مدى أثر اللغة في حياة الشعوب. وأول جهد يجب أن يبذل في سبيل هذا هو أن يسمع الناشئة اللغة الفصحى.

- ثمّة خطوات عملية يمكن من خلالها أن نُسمع الناشئة الفصحى، وهي في الوقت نفسه تُراعي واقع الناس ومستواهم اللغوي، وبمقدور أيّ أسرة أن تقوم بها، والأمر لا يحتاج إلا إلى الإرادة والمتابعة اليومية، ولا يُعوزه أن يكون في كلّ منزل أستاذ في النحو واللغة والتصريف والأدب، فقط على كل أمّ أن تقتطع من وقتها كلّ يوم ساعة واحدة تقسمها شطرين، أو أكثر على مدار اليوم، تُسمِع فيها ولدها تسجيلاً لكلام فصيح، ويمكن أن يكون هذا الكلام قصة مسجلة أو شعراً أو قرآناً أو أي كلام فصيح يستهوي الأطفال، وهو أمر موفور للجميع على شبكة المعلومات أو على الأقراص المضغوطة، وعليها أن تكرر ذلك على مسامع ولدها مرة بعد أخرى حتى يحفظها.

- ويزيد في تعميق هذا السماع للفصيح وسائل الإعلام، فعندما تُلزم هذه الوسائل على بث أي معلومة صغرت أم كبرت باللغة الفصحى، يعيش هذا الطفل في بيئة تمنحه مزيداً من سماع الفصيح، في برامج الأطفال خاصة، فسماع الفصيح في هذه الحالة يُلاحق الطفل، ويزيد في موروثه اللغوي.
- إنّ الغاية من هذه السطور تحفيز الناشئة على النهل من جيّد الموروث والإفادة منه من أجل بناء شخصية الحاضر، فلا يمكن أن يكون لنا شأن في هذا الحاضر بين الأمم، وأهم مقومات الشخصية - وهي اللغة - ليست بين يدينا، لذا علينا أن ننهل من مخزوننا الفكري والثقافي كي نبني المستقبل، ونعبّر عن هذا المستقبل بلغة العصر؛ بلساننا نحن، وليس بلسان يتكلّف ويتقعّر ويتمحّل، فهي إذن دعوة للعيش في المستقبل.

مصادر البحث ومراجعه:

- أدب الكاتب لأبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت٢٧٦هـ)، تحقيق الدكتور محمد الدالي، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- البيان والتبيين، لعمرو بن بحر، أبي عثمان الشهير بالجاحظ (ت٢٥٥هـ) دار ومكتبة الهلال، بيروت، عام ١٤٢٣ هـ.
- جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر، جمعها وقرأها وقدم لها الدكتور عادل سليمان جمال، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣.
- الخصائص، لأبي الفتح عثمان بن جني، تحقيق محمد علي النجار، عالم الكتب - بيروت.
- شفيق جبري، بحث لمدحة عكاش، الموسوعة العربيّة، المجلد السابع (أعلام ومشاهير)، دمشق.
- الفروق اللغويّة، لأبي هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري (ت نحو ٣٩٥هـ)، حققه وعلق عليه: محمد إبراهيم سليم، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.

- فقه اللغة وسر العربية، لعبد الملك بن إسماعيل أبي منصور الثعالبي **(ت٤٢٩هـ)**، تحقيق عبد الرزاق المهدي، إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٢م.
- مجلة التراث العربي العدد١٤٢-١٤٣، صيف خريف ٢٠١٦، عنوان البحث: **(**فقه اللغة بين الأصالة والحداثة**)**، للدكتور محمد عطا موعد.
- **(**إنفوجرافيك**)** مقارنة بين عدد كلمات اللغات في العالم. الرابط: www.islamstory.com

فهرس المحتوى

الصفحة

تمهيد ٥

أولا: البناء اللغوي على مستوى
السماع والحفظ للناشئة عامةً ٨

ثانياً: البناء اللغوي على مستوى
السماع والحفظ للمتميّز من الناشئة ٤٣

نتائج ومقترحات ٧٦

مصادر البحث ومراجعه ٨٣

د. محمّد عطا موعد

- من مواليد دمشق ١٩٥٩م.

- أستاذ في جامعة دمشق كليّة الآداب والعلوم الإنسانية- قسم اللغة العربية.

من مؤلفاته:

١- كتاب الميسر في القواعد والإعراب/ دار الفكر/ دمشق/ ١٩٩٥م.

٢- كتاب الميسر في التطبيق النحوي/ دار الفكر/ دمشق/ ١٩٩٧م.

٣- كتاب أعيان العصر وأعوان النصر للصفدي/ ستة أجزاء حقق بالمشاركة/ دار الفكر/ ١٩٩٨م.

٤- كتاب الدّرس النّحوي أم مدرسة نحوية/ دار سعد الدين/ دمشق ٢٠٠٥م.

٥- كتاب النّحو على مستوى النصّ، التعليم المفتوح، جامعة دمشق ٢٠١٦م.

٦- محمّد بن القاسم الأنباريّ (ت ٣٢٨هـ) وجهوده في النحو والصرف واللغة، دار الفكر/ دمشق/ ١٩٩٧م.

الطبعة الأولى / ٢٠١٧م

كلمة الغلاف

معلوم أن اللغة هي سلوك يقوم به المرء، وهذا السلوك له غاية، وقديماً لخّص هذا ابن جنِّي بقوله: «أمّا حدّها فإنها أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم».

وهذا الحدّ لا تتأتى منه الغاية إن كان ثمّة ضعف أو نقص أو خلل في البناء اللغوي؛ إذ كيف يطيق المرء أن يعبّر عن غرضه، وينقل ما يدور في خلده، وليس في جعبته بضاعة يفزع إليها، أو يكون حظّه منها نزراً، أو تكون الأركان التي تُبنى عليها اللغة من ضوابط وقواعد ومعايير غير واضحة المعالم، فكأنها حطب.

إن ثمرة هذا الحدّ تتجلى في إتقان أداء اللغة عبر التكلّم والكتابة والقراءة وإدراك أسرارها وجمالها، فما السبيل لرفع المستوى اللُّغويِّ؛ ليطيق الناشئة إدراك أسرار اللغة وجمالها؟

هذا ما يحاول هذا الكُتَيِّب أن يخوض فيه.